الأعمال النثرية

المتوكل طه

الأعمال النثرية

المعتقل، الانتفاضة، الكتابة

المتوكل طه

في الصعود إلى النصّ

التقينا دون موعد في خيمة الاعتقال في رام الله ليلة العشرين من شباط 1998 .. كانت ليلة عاصفة، ستحمل التجربة الأولى لاعتقالي بعد منتصف الليل. قد تمرُّ سنوات طويلة وتتقلَّب الأحداث كثيراً، لكنّ تلك الليلة ذاكرة متوحّشة، فيها من اللوعة ما يعبّئ سلالاً من قشور الحكايات التي لا تنتهي. تقذفني الحافلة العسكرية أمام الخيمة في السجن على هدوء النيام الذين رقدوا وراء خوفهم وقلقهم المبرِّح. فكُّوا قيودي ودفعوني إلى الداخل. كان المتوكل جالساً في العتمة على حاشية خشبيّة لا تخفي خشونتها تلك البطانية السوداء الوحيدة، والدنيا تنفث بردها. وقف كالمصعوق وأخذني بين ذراعيه : «لماذا جئت أنت الآخر؟» ولم أجد ما أجيب، سوى أنني التصقت به كمَنْ وجد مَنْ يحمل معه هموماً طويلة كنت أدري أنّها ستذهب بعيداً في أنواء البعد والعذاب.. لم يطل اللقاء سوى بضع ساعات هي نهاية تلك الليلة حين اقتادوني في الصباح إلى سجن المسكوبيّة. نظرنا بصمت إلى وجوه بعضنا، ونحن نعلم أنّهم نصَّبوا أنفسهم دفاتر القدر، ينقلوننا كيف يشاؤون من خيمةٍ إلى أخرى ومن صحراء إلى معتقل، وطال البعد قرابة ثلاثة أعوام لم نلتق خلالها إلاّ عبر كبسولات الرسائل وما يرد من أخبار تأتي من خارج الأسيجة، ناقصة ومبهمة وعاجزة عن إطفاء الحريق الهائل الذي ألمّ بنا سنوات الانتفاضة الأولى.

لست أدري لماذا يحضرني هذا الموقف إزاء تقديم النصوص النثرية للمتوكل الذي عرفته شاعراً يتقن محاورة قصيدته، وانتقل بها من موسم إلى آخر. لكن الإجابة الجارحة على مثل هذا السؤال لن تكون بعيدةً عن غفوة الشعور على حالة إنسانية شديدة اليُتم رغم كل النبل والموقف الشهم الذي يلفّها . كانت تلك فترة تفتُّحنا الأولى على الكتابة الجادّة، وكانت تلك فترة اختيار الطريق إلى النصّ. إنها تشبه صدمة الحبّ الأول! هنا تتوقف لتسأل نفسك : ماذا تكتب إزاء مشهدين، أحدهما يشدّك إلى وردة تتفتح للتوِّ، مُشرَّبة بسحر الندى المغموس بالنور، والثاني صيحة صبي يدكّه بسطار جندي على قارعة الطريق؟

عليك أن تختار ما تشاء من المشاهد البديلة لكلّ منهما، لكنّك في كلّ حال ستكتشف أن المشهديّة تختار تأثيرها النهائي على شغاف قلبك : الدمعة أقرب إلى القلب لأنها رحمة الله، وجمال الوردة أقرب إلى الروح لأنّها إبداعه وسرّ قدرته. الحيرة وحدها هي التي ستجمع توق القلب ولهفة الروح في مزيج أقرب إلى الجنون، إذ بقدر احتياجنا للرحمة نكون في شديد الخطو إلى شيء من الخلق. محاولة إنسانية لتجسيد هذا التوق؟ ليكن، لكن الكاتب لا يستطيع أن يكون آلة صغيرة في التاريخ .. إنّ رغبته الأكيدة هي أن يكون على قناعة أنّه يستطيع أن يكون منقذاً لشعبه من المأساة التي تحيق به.

وهكذا ترامت السجون على امتداد العين دون بصيرة. ومن هنا، أيضاً، كان لنا أن «نفتتح النشيد» على رأي المتوكل؛ النشيد المرّ الذي يتحسّس الألم وتكون فيه رغبة البكاء على هذا العالم الذي يقف مشدوهاً أمام

مظلمة دون أن يفعل شيئاً. علّها «رمل الأفعى» تلك التي تشهد بكلّ ما أوتيت من أنياب على هذه المظلمة التي طالت الطاعنين في السنّ بقدر ما طالت الصبية. المكان: سجن النقب الصحراوي، والمكان الأكثر تحديداً مجموعة من الخيام والأقسام التي تجمَّعت فيها أجساد الفلسطينيين في شبه معسكرات إبادة لا تقلّ في رمزها التاريخي عن تلك المعسكرات التي نصبها النازيون والفاشيون لكلِّ من خرج على القوميّة المتطرّفة التي طوّحت بأوروبا مطلع القرن العشرين واستمرّت حتى منتصف القرن.

جاءت نصوص «رمل الأفعى» عابقة بذكريات الانتفاضة الأولى، وبلغة تتناسب مع مفردات تلك الانتفاضة – حيث امتزجت روح المقاومة والصبر والإرادة للتحرّر من آليات القمع المعروفة لدى الاحتلال من موتٍ وتعذيبٍ واعتقالٍ وعقوباتٍ جماعية. لم يكن ثمّة من شيء غير اللغة للخروج من كابوس الموت. ومن هنا، أيضاً، بدأ يتموضع الاتّهام للأدب الفلسطيني بأنّه أدب سياسي، بدلاً من القول إنّه أدب مقاوم، أو أدب وطني، أو أدب يخرج من نزيف الجريمة، على أنّ النصوص الأدبية الفلسطينية في رحلة الانتفاضة، ومنها أشعار المتوكل، لم تكن «سياسية» بقدر ما كانت تختار مشهدها الذي يثأر للشعب المستباح.

كانت جرائم الاحتلال هي الخلفية لمعظم الأعمال الأدبية، وهي خلفية حقيقية تماماً، وتستحق أن تأخذ من الكتاب والشعراء موقعاً للغة والرمز والتحدث والسخونة وكلّ الفعل الدرامي. أمّا «رمل الأفعى» فجاءت في زمنها أثناء الانتفاضة الثانية، رغم أنها تعود إلى زمن الانتفاضة الأولى من حيث الذاكرة. نحن في حنين إلى تلك الانتفاضة لأن قصّتها تختلف

تماماً عن كل الانتفاضات الأخرى؛ إنّها التجربة الأطول والأصلب عوداً في تاريخ المقاومة الشعبية ضدّ الاحتلال، وهي جاءت على خلفية جرائم ارتكبها الاحتلال بوحشية المتنكّر للإنسانية، ووحشية الذي يدوس على كلّ القيم البشرية ويرمي بها في عراء ما قبل التاريخ والحضارة. ولا يكفي القول إنّ «رمل الأفعى» هي نصوص الانتصار لتجربة جماعية جسّدتها إرادة الآلاف من المعتقلين في صحراء النقب : هنا الخبز المرّ والوجبة الجامعة كأنها العشاء الأخير، وهنا العقوبة الفردية والجماعية، وهنا الهموم التي ينام عليها كلّ سجين وراء نوافذ القلق والخوف على الحبيبة أو الزوجة أو الرضيع في مهده، أو الأم المعذَّبة بكافة الكوابيس. كلّ ذلك لا يخلو من دعابة وروح مرحة هدفها الانتصار على المرارة بالاستهزاء منها. والرمل له رمزه الخاص به، إنّه ذلك الذي يقطع البحر كأنه نقيضه. إنه الرمز المادي للخراب حيناً، وهو المعادل المزجي لمادة البناء حين يختلط بغيره من عناصر الحياة. أما الأفعى فهي، أيضاً، مزيج غامض من الطرح الرمزي : الموت والشفاء في آن.

بتلك الروح الباحثة في ثنايا الجريمة وشواهدها، وبتلك اللغة الشاعرة، يستحضر المتوكل الكثير من الحكايات والقصص والذكريات والأشعار التي وجدت في القصيدة مربطاً لها – الأغنية المسافرة في القلب والمتصارعة مع حبّات الرمل والبعد الخرافي عن «عتبة الدار» وهمس السهرات. تتداخل هنا الحكاية بالقصّة بالقصيدة بالسيرة الذاتية لأنّ الأبطال يتعدّدون كحبّات الرمل. هنا بطولة فردية وجماعية في آن، لها ما ترتكز عليه من عقدة وحدث وامتداد في المكان والزمان، ولها ما تطمئن

إليه من لغة إشارية تبوح بوجدها وعذابها ورمزها البعيد. ولم يكن البطل في «رمل الأفعى» واحداً بعينه. تشابهت وجوه المعتقلين كما تشابه وجدهم وشوقهم، ولذلك نفى كل منهم «البطولة» عن ذاته ليعطيها للمكان الذي يجمع أشتات الذكريات. وليس المكان الحاضر هنا هو سجن النقب أو سجن الرمل، بل هو امتداد للمكان الحاضر في ذهن السجناء كلّ وخياله المتواصل مع شجرة مفقودة أو قرنة غافية باتجاه المجهول، حيث الموت صوت، والبعد أغنية لا حدود لموسيقاها الراحلة في ثنايا الأمل والانبعاث.
لم يكن غريباً إذاً، أن تظهر «مرايا الدم والزلزال» على شكل شهادة طويلة جاءت على لسان المتوكل طه في محاولة لكتابة الانتفاضة الأخيرة التي صعدت من الأقصى إلى دماء الصبية، في مظلمة لم يعرف التاريخ لها شبيهاً. الشهادة في أصولها محاورة لحالة السلام الذي مات والموت الذي جاء، وهي محاكمة فيها الكثير من الجرأة لفقدان البوصلة وحالة التشتت التي أصابت الرؤية الفلسطينية عموماً في التعامل مع حالتي السلام والانتفاضة، كما هي محاكمة، أيضاً، للتطرف الأيديولوجي الصهيوني في محاولة اكتساب الأرض والأمن معاً.
«في فترة ما، يقع كل مبدع في وهم كبير مفاده أنّ الفنّ سيغيّر الدنيا، وأن كتابة قصيدة تشبه ظاهرة طبيعية» يقول المتوكل في «طهارة الصمت – عن الكتابة وهموم الثقافة». وقد يبدو ذلك ضرباً من التحدي لحقيقة الحال، إذ أنّ ما يحلم به كاتب في بلد ينعم بالسلام والحرية لا ينبغي أن يكون هو ما يفكّر به كاتب في جزء مظلوم من الدنيا، ليس لأنّه لا يحصل على خلاصه الفردي وحسب، بل لأنّه لا يستطيع أن يضع خطوته القادمة

حيث يشاء. إنّها حالة انفصام بين ما يمليه العقل الواضح على العقل الباطن، إن جاز مثل هذا التعبير. فهذا الوهم ليس وهماً بقدر ما هو تحد للمجهول، نعم، إنّ الفنّ قادر على تغيير الدنيا، وقد ثبت ذلك بالقطع على شكل تراكمٍ من الفن صنع الحضارات على كافة أشكالها وقدراتها الفذّة. الحضارة العربية ليست بعيدة في أصولها عن فرس طرفة بن العبد وأوجاع عنترة، كما أن الحضارة الغربية ليست بعيدة عن معبد دلفي ورحلات أبولو العملاقة وراء الشمس. ما أريد قوله هُنا : إننا في حالة الغياب التام للمنطق الكبير والعدل النسبي نلجأ إلى اللغة لأنها قوّة التعبير عن جنون التصادم بين عدلٍ مكتشفٍ منذ خلق الله الكون وظلمٍ مُمارسٍ منذ أن قتل أحد أولاد آدم شقيقه، وكلّ ذلك على خلفية طقس تمّ قُبوله من الثاني ولم يُتقبَّل من الأوّل. وهل يبتعد الطقس كثيراً عن الفنّ؟ لا، الأول يلهم الثاني، وهذا بدوره يضيء جملته الساخنة على عتم الدنيا. فرغم الفزع الذي أثار وجوده البرامكة في تاريخ السيرورة العربية إلى حضارة أطول عمراً وأبلغ شاهداً، إلاّ أنهم لم يتجرّدوا من رغبة كامنة في إضاءة حالة من الفنّ – شعراً وموسيقى. وحين كتب المتوكل طه ديوانه البعيد «حليب أسود» وفي مفارقة مذهلة في اللون، جاء بصيغة البرامكة على أنهم الشهود الأكثر قسوةً على كيفية انتزاع المُلْك من خلال الاستئثار بخطوة حاكم «طيّب» أو خائف من ارتداد بني قومه على شهوته القاتلة. هل كان ذلك رؤية مفادها أنّ الفنّ قادر على تغيير الدنيا؟ ليس الأمر كذلك لأنّ الصنيعة والصانع وقعا معاً في شرك بذرة الخراب. لكن الوضع هنا – في فلسطين – حيث المكان والشاعر معاً، يختفي كل من الصنيعة

والصانع في ثوب قوّة عالمية معقدة عملت على مدى قرن من الزمن على تغييب شعب لإظهار شعب آخر، الأوّل مولود في الأرض والآخر قادم إليها من رماد «الوعد الإلهي» بحجة أن الربّ بائع أراض أو بلدات يعطيها كيف يشاء لمن لا يستحق. عليه، فإن للفنّان أن يؤمن فعلاً أنه قادر على تغيير العالم. عليه أن يضبط رباط ساعته على موعد ليس له نهاية ما مقترحة في تاريخ الشعوب. عليه أن يؤمن أن كلمته قادرة على تغيير الوعي البشري. عليه أن يؤمن أنه قادرٌ على تحريك الحجارة وإعطائها قلب الناس كي تبكي حين يوضع في الميزان كلٌّ من الضحية والجلاد.

ولم تكن المجموعة النثرية «طهارة الصمت» سوى صوت حاد كثير القول حول بلاغة ما يحدث في هذه البقعة من الدنيا. لسنا إزاء فنّان يؤثر الصمت رغم أنه يتمنى لو يستطيعه أو يطيقه، لكنّه لا يصل إلى حقيقة جريان التاريخ دون كلمات، ودون صوت، لأن تجربة «الخزّان» ما زالت حاضرة في ذهن كلّ كاتب، ومع ذلك فقد ظلّ صوت غسان كنفاني حاضراً في براري السنوات الطويلة منذ اغتياله وحتى قدوم الانتفاضتين الأولى والثانية وما ضاع بينهما من سلام، ومَنْ مات في ثناياهما من بشر لم يخسروا القصيدة رغم أنّهم لم يعودوا قادرين على الاستماع للشعر.

وما يهمّني الآن هو ما اكتنزت به تلك الفترة من ويلات سجّل لها المتوكل عمقاً في «عباءة الورد»؛ مجموعة النصوص الشاعرة والأنيقة حيث وقفت عند أبواب الشهداء والجرحى والحالات الإنسانية المعذّبة، والناس في همومهم في أكثر من مكان. وربما تحفل هذه المجموعة من النصوص بلغة

الشعر أكثر من النصوص النثرية الأخرى، ذلك لأن المتوكل أفلت فيها – أكثر من غيرها – من عبء مخاطبة المنطق والجغرافيا والتاريخ، ولجأ إلى الوجدان الذي لا يشوبه «منطق» الأشياء، حيث أن الوجدان لا يبحث عن تفسير لحالته المجنونة والصاعدة إلى غيم الحنين أو الشوق أو القلق. ثمّة حالة من المرور السريع والصاعق إلى الوجدان الذي ينزف منذ اللحظة الأولى، كأن الشهداء والمعتقلين والأمكنة تتداخل في اللغة وتأخذ رموزها وإشاراتها، ويبقى الأمر كذلك حتى الوصول إلى المدينة العاشقة والمعشوقة في آن، مدينة رام الله التي تختزن في قلبها الكثير من القرى والمدن الأخرى، كأنها المحطّة النهائية بعد تعداد مدهش يبدأ بسقوط الرأس ويمرّ عبر الأجيال الطويلة.

هذه مجموعة نثرية تضاف إلى رصيد المتوكل الذي عرفناه شاعراً، وليس من اختصار لما تحويه من حالات ورسوم ومقالات فكرية وتوصيفات للعديد من الأزمات والأسئلة التي يطرحها المثقفون على أنفسهم وسط اللّجة. وليست هذه محاولة للهروب من قولي أكثر حول المجموعة التي تستحق القراءة المتأنية أكثر من مرّة لأن ما من شيء يُغني عن الأصل.

عزت الغزاوي

رئيس اتحاد الكتّاب الفلسطينيين

حاصل على جائزة فلسطين للرواية

رمل الأفعى

سيرة كتسيعوت - معتقل أنصار (3)

رام الله 2001 م

النصّ الأعلى

صبحي حديدي

اليهودي، في تعريف المفكّر اليهودي الشهير جورج شتاينر، هو ذاك الذي سيظلّ أبد الدهر عاجزاً عن كبائر ثلاث: ممارسة التعذيب، ودفن الأحياء، ومنع الكتب، ثمّة، في نظره، إرث أخلاقي وتراجيدي عريق يحول دون ذلك، فاليهود «قبيلة الأنبياء والكوارث» واليهودي لا يقيم في مكان آخر سوى «بيت النصّ».

اعتذار شتاينر عن هذا التعريف لم يتأخّر كثيراً! فمع ولادة انتفاضة 1987 وافتضاح حقائقها الصلبة المنقولة بالصورة والصوت، اعترف شتاينر أنّ إسرائيل اليوم تمارس التعذيب وتدفن الفلسطينيين أحياء وتمنع الكتب. ولقد نعى الثمن الباهظ الذي تدفعه اليهودية في انتقالها من طور «المعجزة السوداء الساعية إلى حفظ النوع» إلى طور «المعجزة الدامية الساعية إلى حفظ دولة لا تعيش إلاّ بحدّ السيف».

كتاب المتوكل طه «رمل الأفعى: سيرة كتسيعوت - معتقل أنصار 3» يذكّرنا، من جديد، بأنّ ذلك التعريف الذي حلم به شتاينر لا يسير من انحطاط إلى انحطاط فحسب، بل هو يكمل إغلاق دائرة تامّة على تعريف آخر اجترحه حيدر عبد الشافي ذات يوم، حين خاطب قادة إسرائيل من منبر مؤتمر مدريد: لقد رأيناكم تلتفتون إلى مأساة الماضي

بعميق الأسى، وتشخصون برعب إلى ضحيّة تشوّهت فانقلبت إلى قاهر. . .

ولأنّ المقهور، وليس القاهر في الواقع، هو السبّاق إلى اكتشاف حدود القهر الضيّقة كيفما استشرت واستشرست واتّسعت، فإنّ ها الكتاب وثيقة بليغة في تجريد أوليات القهر: تجريدها بمعنى تعرية أستارها وذرائعها وشكلها ومحتواها، وتجريدها بمعنى رفعها إلى مصافّ الرمز الكوني المجرّد لحيز المحتاج إلى الترميز، وليست عبقرية «الشباب» رجالات انتفاضة 1987 الذي يسجّل المتوكل طه حكاياتهم وشهاداتهم، في تدبّر أكثر من أسلوب واحد فذّ يتيح اكتشاف حدود القهر الضيّقة، ليست تلك العبقرية سوى ذلك «النصّ الأعلى» الذي اعتاد الأرشيف التاريخي أن لا يلحظه تماماً، رغم أنّ التاريخ لا تكتبه على حقيقته سوى تلك النصوص العليا.

وكان المحامي الفلسطيني وليد الفاهوم، في كتابه الرائع «ولا بدّ للقيد أن ينكسر» قد حدّثنا عن نموذج آخر في عبقرية انتزاع الحياة الفلسطينية من شدق الاحتلال المفتوح على بربرية مستديمة، لقد ابتكر التلامذة الفلسطينيون طريقة في القراءة قد لا تتوفّر في أيّ مكان آخر باستثناء فلسطين المحتلّة: طريقة القراءة بالمقلوب! لأنّ الكتب المدرسية كانت نادرة، والأحوال المعيشية لا تسمح لكل طالب باقتناء كتاب خاصّ به، يتناوب أكثر من طالب على استخدام النسخة ذاتها. في الآن ذاته: يبلى واحدهم مقابل الآخر ويكون الكتاب بينهما، فيقرأ الأول بصورة طبيعية ويقرأ الثاني بالمقلوب!

وثمة في كتاب المتوكل طه تفاصيل مدهشة عن هذه «الحياة بالمقلوب» : سوداء، مثيرة للغضب تارة، طريفة محرّضة على الضحك طوراً، وإنسانية طافحة بثراء الروح في الحالين . ثمة تسجيل وقائعي، وثمة التقاط شعري للمادّة التسجيلية ذاتها . مرّة يروي المتوكل طه بلسان الأمين على تفاصيل التاريخ، ومرّة يسرد بلغة الروائي الساعي إلى رفد التاريخ بنفحة حرّة من مخيّلة البشر . مرّة تدهشنا الواقعة العجائبية، لا لشيء إلا لكي تدهشنا أكثر الواقعة ذاتها في مادة تشكيلها الواقعية!

هذا كتاب ينهض على أكثر من قيمة خاصّة واحدة، عدا عن كونه ينتمي أوّلاً إلى ما نسمّيه «أدب المقاومة» بالمعنى الأرقى بالنسبة إلى مصطلح الأدب . وبالمعنى الأكثر تمثيلاً للفعل القاعدي بالنسبة إلى مصطلح المقاومة . إنّه شعر وقصّة وسيرة وشهادة وتاريخ وجغرافيا وذاكرة فردية وأخرى جَمْعية، وهو وثيقة بليغة في إدانة الدولة العبرية، منتهى التمثيل المؤسساتي لليهودي/ الضحيّة وقد تشوّه . . . وتشوّه . . وتشوّه .

إلى أولئك الأصدقاء
وإلى تلك الأيام الصعبة .. والطيّبة

تنظر حولك فترى عسلَ الضُحى يُغطّي نهارَك من أوّله! ما هذه الشجون التي تحطّ على غصون قلبك، أيها الناظر في كل الاتجاهات؟ ثمة زنجبيل يُعبئ الهواء، وثمة عملاق خرافي يُشقّق سقفَ الأرض، وينذر بدخان كثيف وغبار قاس!

. . وسيخرج، بكامل رماده وعُرْيه، وستبقى انحناءته، حتى لا تضيع ملامح المدن أمام عينيه . ويرى هلع المخلوقات، وحركتهم المتوترة الحائرة - قبل أن يهدأ روعهم - فتزداد دهشته، ويحاول أن يمعن بعينيه الواسعتين، في تفاصيل الفسيفساء المتناثرة . . فيرى جنوداً بحجم البيادق، يصوّبون رصاصهم نحوه . . فينخدش لحاء ساقيه . . وتسري قشعريرة الوخز في بدنه، فيمدّ أصبعيه، بين الأزقّة، يلتقط المدجّجين، كما يلتقط فلاح يستريح في ظل كوخه النملَ الأحمر، ويفركه بيده الخشنة . . وينهض ثانيةً ليكمل افتراع حقله بمحراثه الصلب! دون أن يكترث ببيت النمل، لعلم هذا الفلاحَ الطاعن بالأرض أن أيام الشتاء القادمة ستدفن النمل، وسيبزغ شَعر الربيع الناعم بثقة ويسر وهدوء!

*

سندخل هذا المحيط الرملي، دون أن نخشى الغرق. فالصحراء، رغم هوامها وأفاعيها، أكثر رحمةً من سمك القرش البحري، أو من حطم التماسيح الهائجة في المستنقعات. وفي النهايَة، فإن الصحراء أكثر دماثة وشفافية من البحر - رغم أنها أقل حياة منه - غير أن كلا منهما له فتنته ومنطقه وأسراره، ولكل منهما مفاتيحه وأغانيه وغوائله.

ويبدو أننا ننتمي لثقافة الصحراء؛ فكم فغرنا أفواهنا أمام بأس فرسانها المُنصفين، وجنون شعرائها العذريين، وكم غفونا على حكاياها، وعمّتنا النخلة تظللنا بجدائلها الكبيرة، حتى كنا نرهب حمام الدار إذا بغم، ظنّاً منا أن حدأة الحكاية هي تلك المستوحشة التي تهدل على شباك البيت. وربما وضعنا أيدينا الصغيرة فوق رؤوسنا، خوف أن تنقر الحدأة رؤوسَنا بمناقيرها الحاذقة.

سندخل هذه الصحراء التي يبدو أنها كانت مدناً من نحاس نخّلَتها الرياحُ وعويل الليالي، فانفرطت، واستوت رملاً.. وها نحن نطأ الرمل، لكنني أسمعُ تهاليل الوالدات، وشخب الحليب اليانع، ومناداة بائع الفاكهة السمين، واعترافات النساء خلف ستار التوبة، والرهز في بيت الأمير، وأنين حاملي الماء في الأسواق.. أسمع سقوط الكمثّرى في جدول البستان الكبير، ومنطقَ الطير، كأن العطّار النيسابوري أكمل أشعاره المتبتّلة هنا، بل هنا كان ابن القارح يدور على الشعراء من ضفّة الجنّة إلى ضفّة النار. وهنا حطّ الهدهدُ على باب سليمان، ورفعت بلقيسُ ذيلَ ثوبها خوف ماء الرخام، فانقشع البرّ وتلعثم الجان!

هنا، على هذه الصحراء استراح ذو القرنين، قبل أن يموت مخموراً بالنصر والبعوض، وقتلوا لوركا دون أن تفترّ فَراشةُ القُبلة في

شفتيه، تلك التي وشمتها امرأةٌ هي كل الغجريات . وهنا حطّت سفينة نوح، وابتاعت نفرتيتي الإثمد لجفنيها، وسكبوا الحمامةَ لملكة النهرين سميراميس. هنا تبلبل الخَلْق أول مرّة، وابتدأ مسمار الحضارة والكلام . . وهنا نكمل، على أطلال الصدى، جبروت جدّنا عوج بن عناق، الذي كان يجلس، بالضبط هنا، فيمدّ ذراعه في البحر المتوسط، ويمسك بالحوت، ويضعه في عين الشمس، ويصطلي لذةً بالشواء.

*

ندخل إلى حضرة الصحراء، وما فتئت همومنا تشغلنا عن التبؤّر فيما حولنا، وإمعان النظر في هذا الفضاء الجديد. ونواصل تأثيث المكان بما نمتلكه، بالترتيب والتحديد، والتشدّد في النظافة . . ونحتاج، على ما يبدو، إلى أيام حتى نكتشف حداثة أحاسيسنا، تجاه كل ما تقع عليه عيوننا. والغريب، ربما، وبعد بضعة أسابيع، أننا نتأقلم مع المكان، حتى ننسى من أين جئنا، ولماذا، وإلى متى . . كأننا وُلدنا هنا، وخُلقنا هكذا، فجأةً، بالكيفيّة التي نحن عليها. ولا تحزّنا سكينُ الحقيقة إلاّ عندما نخلد للنوم أو لأنفسنا، أو عندما تقع حادثةٌ خارج السياق اليومي الرتيب.

كان ثمة جدارٌ سميك يلفّ المعتقل، من كل جنباته، يفصله عمّا وراءه، جدار لا يُرى، لكنه سدٌّ مانع، يحول بين الصحراء وما خلفها.

وهنا، في مدينتنا المسوّرة المغلقة، يصبح النسيان نعمةً، تمنحنا القدرة على التجدّد والمثابرة والمضاء، وتصير الغفلةُ التي طابت لنا، وسعينا إليها، بلا وعي، ربما، أوقاتاً مريحة رحبة، طالما فككنا خلالها

أثواب الضيق والاختناق، عن روحنا، فتنطلق من إسارها. . لعلها تتّحد مع نجمة تدفّ بفضّتها، وتنادي الروح، لتأخذها إلى بيتها. . هناك، معها في البعيد.

أين الرمل في جسدي؟ ما دمتُ أعرف أن الماء والمعادن والتراب كُلّها فيه . إذاً، أين الرمل؟

أنأى بالقلب ومصادر الحواس، معتقداً أنها من تراب خصب وماء فما الذي يبقى في الجسد؟

يبقى الكثير، ولكن، ما هي القطعة التي ستعود رملاً بعد الموت؟

ربما العظام، لأنها أقرب ما تكون لهذه الذّرات الجافة التي لا تشرب الماء، وتصرّ على عطشها إلى أبد الداهرين، بل تكره أن تكون رحماً ينشأ بينه الزرع أو الضرع .

هل يكره الرملُ الحياة والنماء؟ هل هو جماد عبثي، اكتشف مبكراً النهايات المُفزعة، فآثر التفرّد والوحدة، وعدم التعلّق بصاحب أو شبيه؟ وهل أقول إن جفافَهُ تعبير عن رغبة في العزلة والابتعاد، وكراهية لكل ما يَنبت من البذور والجذور . . ولهذا يبتعد عنه المطرُ، يأساً من طبيعته وإصراره على الضمور واليباس، مهما أغرقه في غيثه، وبسط له من نور برقه؟

ألهذا السبب يخفّ حمل رمل الصحراء حين يغضب ربّ الرياح، فيصير جناحاً أسود من شواظ، يولول في حمأة الظهيرة، ويحطّ حيث يبدأ الموت؟

– ربّما، يصرّ الرمل على خديعة الإنسان، يبدو ناعماً، يهفت تحت الأقدام، ساحراً بثنياته اللامعة . . لكنه ماكر، يُخفي بئراً عند كل خطوة –

والرمل ذاكرة مخيفة، يدفن في طيّاته الكثير من الصهيل والنشيج والدماء والحسرات! وهو مساحات بلا أفق، تختزن الشمس والليل في معطفه. يتسلل ويرسو بطرائقه الغامضة الخاصة، يحتلّ ويسيطر، ويهبّ عند كل خريف.

والرمل موج البرّ الذي يحدّ الأشياء، يجاور البحر، ويضع له حدّاً، ولا يشبهه. والرمل يبتهج بأمثاله من الصعاليك والعشاق المشروخين. لا يطرب لناي، ولا تبكيه ربابة. حياده قاس مثل صُبّاره وطيوره، وله ألوانه الذهبية المتماوجة، كأنها تجاعيد الأرضً الهرمة، أو وجه الساحرة المتغضّن، التي ذهبت بعيداً في العرق والخطايا.

ولا يفوز عليه إلا الصبور المُجْتَرّ أو الثعلب الحديد، عليه يُقام الخباء - كأنه يختبئ من القيظ والصلّ والهجير - ليهيّئ للظبية خدرها وعطر السوسن والسامر المجروح.

والرمل مزاجيّ متقلّب، يَملّ الثبات مثل صدر اللعوب، يشبه الكابوس وفسحة اليأس، أو كأنه وَهْمٌ من وَهْم، تمسكه فينثال من بين أصابعك كالماء الحُرّ، يساجل الواحات، ويتسع للثأر، وسخريته دائمة، تشعّ بالسراب.

لا وجه للرمل ولا فؤاد.

والرمل شاهد إثبات على تحوّل الكرة الأرضية، من مرحلة الغابة إلى ما هي عليه الآن من يباب وأخاديد عذاب. يدفن تحته قارّات من الأشجار والأعمار، اختزنها تحت أقدامه، حتى تخمّرت فأصبحت سائلاً هائلاً، يعيد تشكيل سطح الأرض من جديد.

الرمل، باختصار، مخادع، فقير ويائس. تَذرْذرَ لفرط وحدته، وجفاف ينبوع دموعه.. فَفَقَدَ الحياة.

وعلى رمل هذه الصحراء سنقدّ من عُمْرنا سنوات ودموعاً وأحلام يقظة، وسنخرج من دُرّاعتها أكثر صلابة ووهجاً وقوةً، كأنها مخرطة أخذت شوائب الشحم واللحم، وصبّت فينا الشمس والقمر والأغاني الصعبة. وسنرى الخيام، بعد عقد من الزمان، كأنها بقايا حلم خفيف، حطّت على أرض رخوة، ثم أخذها باشق عظيم تحت جناحيه، وألقاها في النسيان.

وها نحن نتذكر، كل نأمة ونشيد وقيد ولمعة جوع وغضب، حتى يعلم القادمون كم كانت هذه الفلسطين مُبهظَةَ ونفيسة، وكم كان الاحتلال خارجا على كل الصفات والنواميس والضمائر وكم كان زماننا مشوّهاً وعبقرياً.

وعلى رمل هذه الصحراء، لن نرى إلاّ قوافل الحديد. وسنتخيّل كيف أن قافلة في المغيب تمرّ أمامنا، فنراها مثل خيال عرائس الأراجوز، تتمايل وسطها الهوادج، ونسمع حُداءها من بعيد، وستقترب القافلة مع الشروق، وتمرق قرب السياج، فتظهر أثواب الجمال وسروج الخيل الضامرة السريعة. وخلفها يخبّ العبيد والحرّاس بَجسومهم الممشوقة كأنها سهام من حديد، وسنرى الكلاب تهرّ خلف الخفاف وحول الأظلاف، بعصبيتها وبحثها عن اللاّ شيء. وربما نتخيَّل عصابة من فرسان الطوارق الملثمين، اتقاء هبوب الرمل على وجوههم، فيتوقفون حال رؤيتنا، ويعجبون لأننا مثل نسائهم، دون لثام! وربما نوقد ناراً وسط الساحة، دون حطب، ليَطرقنا أبناء السبيل، ونهمس لبعضنا حتى نتمّم واجب القرى والمبيت. بل سيقوم شيخ منّا ويصعد بنظره إلى السماء الشاسعة المَكشوفة، ويشير بعصاه إلى طرق الصحراء، الموصولة من نجمٍ

إلى أخيه . . وقد نتقمّص أجدادنا البعيدين، الذين أتوا بنا من كوكبهم الرمليّ، وثاراتهم القبيحة، إلى سواحل بلاد الشام، وأبقوا جيباً صحراوياً هو صحراء النقب، قريباً من بيوتنا حتى لا ننسى جذرنا الأول؛ الجزيرة العربية . . لكننا، وفي كل الأحوال، سنرى حبّات الرمل المفككة، والمتفرّدة المنفصلة عن باقي الحبيبات، وسندرك خسارة هذا التفكك، ونعي حيوية أن نتماسك، وأن لا نشبه الرمل، بل نكون سبيكة ذهبية، عزيزة على التشظّي والانفراط .

*

لقد كانت انتفاضة كاملة !

اليوم، يكون قد مرّ على انفجارها العبقري أكثر من اثنتي عشرة سنة، وها نحن نشهد، اليوم، ميلاد انتفاضة جديدة، اسمها انتفاضة الأقصى أو الاستقلال . . لا فرق. والشيء بالشيء يُذكر.

تلك انتفاضة كاملة!

كان الفهد خارجاً بكامل سخونته، من الغابة البكْر، يحمل قلب الريح، كأنه عاهل العاصفة، كان ريّاناً، مُشْبَعاً بغضب الأشجار التي ماتت واقفة، ولم تركع! وكان صمته قطَعاً من غضب الليل الذي كَنَس البساطير الثقيلة من ليل المدن والقرىَ، وجعل يقظة الخوف أبديةً في حدقات الخونة والجنود.

تلك كانت انتفاضة . أما انتفاضة هذا العام فإنها سبعٌ روّضته البيوت،

وأطلقته على الدخلاء. أما تلك فكانت فهداً بريّاً، له أناقة البرق وإغواء الغزال .

هذه صوت الرأس، أما تلك فكانت شعلة الجسد كلّه .

تلك كانت زفّة واحدة أو جنازة واحدة، أو بالأحرى كانتا متداخلتين إلى درجة اختلاط الدمع بالحبق، وملوحة عرق الأعراف بعسل شهد الفرس .

تلك كانت صيحة إسرافيل الفلسطيني، الذي أيقظ الحجر والشجر والطير والينبوع، أما هذه فصحوة الجسد من خَدَر العملية الجراحية الفاشلة .

تلك كانت غيث كانون الواضح، أما هذه فهي تردد الغيمة في عباءة العاصفة .

تلك كانت البداهة والبديهة، أما هذه فإنها صنعة الثوب الكنعاني المطرّز .

تلك كانت الدخول الحاسم إلى بهاء الموت برضى كامل، أما هذه فالحسابات تزاحم المشهد الذي يشدّك إلى أن تغسل الأرض، كل الأرض، بوريدك الكريم .

تلك تاج المليحات، وأم الحكايات، وقصّة الراوي الذي لن تنتهي لياليه . أما هذه فهي مسرحية الكاتب المسلّح الناضج، الذي تقلّب على سفّود الجمر، وما فتئت تأكل كبده ليل نهار .

تلك لحم التفاحة الأحلى، وليلة الدخلة التي لن ننسى لذعة السوسن فيها، أو حُرقة عجين ورقة الليمون، وصخب أغنيات الأهل الفرحين، أما هذه فهي زواج الوردة للمدى الدامي، في فضاء قاعة المدعوين والشهود .

تلك شهوة الزيت، وانفعال الشفتين، ورضى الزوجات عن الغياب

المليء بالدوالي والرسوخ. أما هذه فإنها البهجة بالموت العالي، والفجيعة باللوعة المجانيّة . . أحياناً .
وتلك مقابسات ليالي القبر التي أشرقت بالجنين الرسولي، أما هذه فهي نهضةُ الفتى لتكتمل دروسه، وتصحو مداركه .

*

يغيب الآن الموسم كله، بإرهاصاته وحلقاته وأسواقه وتجمعاته! وتحضر هندسة الحرب، لتبعدنا أكثر عن فطرة ما كان في ذلك الموسم من حالات وحكايات، كأن الناس كانوا فيَ موسم قطف الزيتون، أو بناء معبد كبير، أو كأنما يريدون تحويل نهر عظيم عن مجراه، أو إزاحة البحر إلى الوراء . . لهذا لم يتأخّر أحد! كان الرجال أطفالاً وشباناً وشيوخاً في الحقل أو البرّ، وكانت النساء يكملن أعمالهن في البيت دون توقّف!

ولعل التاريخ لم يشهد حالة انشغال دائبة مثل التي كانت أيام تلك الانتفاضة الكبرى - ولا أقول الأولى - هذه الانتفاضة قيّدت الكثير من الناس، واقتصر فعلها على جيل محدد، يتمتع بلياقة رمي الحجارة واستعمال المقلاع، أو على المُدَرّبين جيداً على استخدام السلاح والرشاشات، ما جعل الكثيرين، وبالتحديد القاطنون في المدن المحررة «المناطق أ»، يبحثون عن دور مباشر لهم في هذه الانتفاضة، فلا يجدونه! ما جعل الكثيرين يرزحون تحت وطأة ضميرهم وسؤاله القاسي الممض، وهم يرون الشبان الصغار يبتلعون أدوارهم، ويتربعون على عرش المشهد السخيّ الجريء .

كما أن المرأة تراجع دورها كثيراً، ولم تهيئ لها هذه الانتفاضة ذلك الدور الواسع العملاق الذي وفّرته لها تلك الانتفاضة، حيث حلّت المرأة مكان زوجها الذي اعتقلوه، فأصبحت أماً وأباً، وعمّق حضورها ذلك الدور الاجتماعي المشرّف الذي ظهر في تشييع الجنازات التي طالما انتهت باشتباك طاحن مع جنود الاحتلال، وفي عيادة الجرحى، ومواساة العائلات الثكلى، وزراعة المساكب والخضروات، وتطوير الاقتصاد البيتي.

ولم نسمع أحداً يسأل عن مصير أُسرته، وهو في حمأة الزنازين، أو في عين المتراس الحمراء، ولم يخلع الناس - آنذاك - التطهريّة التي تليق بالأولياء والفلاحين البعيدين، ولم يسقط رجل في إغراء المقارنة بين الطبقة المستريحة الحريرية، التي تشكلت في السنوات الأخيرة، وأحوال الدهماء أو الرعاع - هكذا يسميّهم البعض -، وينظر إليهم على أنهم ليسوا أكثر من حطب، يصلح للاشتعال تحت طنجرة السياسة حتى تنضج، وبالتالي لا يأكل منها إلاّ الطبّاخون المعلمون، أو المَهَرة.

وفي تلك الأيام، كان الانضباط أعلى، في السنوات الثلاث الأولى، وكان جدار الانتفاضة صلباً، لم تخترقه الأصابع الخفية المدسوسة، أو الشائعات السوداء. وكان الاستنفار كاملاً، ولهفة الناس حاسمة، حيث نكشوا حواكير بيوتهم وزرعوها، ورموا المنتجات الاسرائيلية، وكانوا أكثر قناعة بالتقشف الحقيقي الذي فاق زهد الرهبان في الجبال الجرداء، ولم تكن - حينها - تلك المجموعة التي تدبّ الآن بين الناس، تشدّها مصلحتها - بصفتها كمبرادور يستورد البضائع الإسرائيلية، أو وكلاء لكبرى شركات الدولة العبرية - أو يدفعها

طموحها الأجوف - بصفتها، كما ترى نفسها، مؤهلة لوراثة الحكم، أو من أولي الأمر الذين يجب أن يصنعوا القرارات المصيرية للشعب والقضية - .

وفي تلك السنوات، كانت عبقرية الانتفاضة تتمثل في تحييد أسلحة الاحتلال الثقيلة، باعتمادها على الحجر والمولوتوف، كما تتمثل، أيضاً، بالالتزام الحديدي والدقيق بالقرارات التي كانت تصدرها القيادة الوطنية الموحدة عبر بياناتها آنذاك .

أيام الانتفاضة الكبرى كان لها لون واحد هو الأبيض الذي يسعى للانتصار على الأسود بكل مكوناته ومصادره . ولم يدخل الرماد إلاّ بعد ثلاث سنوات أو أكثر، من بدء ذلك الانفجار العبقري الواسع والعميق .

في تلك الأيام، كانت روح الجندي المجهول تمور في ضلوع كل الناس، فكان التكاتف والتكامل والتكافل قد وصل إلى أقصى صوره ودرجاته، إلى حدّ أستطيع أن أقول، دون مبالغة : إن المليونين ونصف المليون فلسطيني في الضفة والقطاع كانوا أُسرة واحدة، فالأب للجميع، والأم والدة كل الأبناء والبنات، والأولاد أشقاء نزلوا من مجرى واحد وعسيلة واحدة، يتشابهون إلى حدّ التوأمة، ويتسامحون إلى أن أصبح الإيثار لغة منحوتة، لا يغلبها قولٌ مشبوه أو صراخ حاسد .

تلك الانتفاضة غسلت الجسد الواحد، من كل أدرانه وشوائبه، بعد أن صهرته في مرجل هائل، وسكبته لامعاً مضيئاً، لا طريق له إلا الأمام، بعد أن أحرقت، هنا وهناك، تلك الجيوب المُعيبة؛ سواء أكانت بؤرة للمخدرات، أم السقوط الأخلاقي، أم علبة لليل القاصف، أم بقعة

كريهة متصلة بالاحتلال، أم الشقاوة المريبة.
تلك كانت التاج الذي أكمل حجارته المسحورة، والعُرسَ الذي اكتمل إلى حدّ المعجزة، والحجر الخرافي الذي حكّ هواء الفولاذ، فدبّت النار في هشيم الدنيا، وفهقت السماء بنجومها، فغاب الليلُ.. إلاّ قليلاً.. بانتظار الشروق الكبير.

*

لم تذكر رقمي تلك «الشحرورة» السمراء! فانتبه المعتقلون، في كل الأقسام، إلى البنطال الكاكي المحشور بلحمها وهي عائدة، تحمل أوراق الإفراج عن عدد من المعتقلين. وليس غريباً، ربما، أن ينتبه المعتقلون والأسرى، إلىً مفاتنها المتواضعة، وهي قادمة، تخبّ، نحو بوابات الأقسام، لتنادي على «الأرقام» التي سيتم الإفراج عنها.

والشحرورة هذه إمرأة قصيرة مكتنزة سمراء، لعلها من جذر يمنيّ أو من الفلاشا الذين وجدوا أنفسهم على تلال «يهودا والسامرة» فأصبحوا بشراً! ولقد أطلق المعتقلون اسم «شحرورة» عليها لأنها تُشحرر المعتقلين. واللفظة آتية من كلمة «شحرور» العبرية، ومعناها حرية أو إفراج أو إطلاق سراح!

ولعل إدارة المعتقل وضعت هذه الشحرورة مرسالاً «يُبشّر» السجناء، بعد طول اعتقال، بفرج العودة إلى المرأة والبيت، أو بالأحرى لتكون مصيدة للقليلين من ضعاف النفوس المكبوتين الذين يرون فيها كل الأنوثة والدلال!

ولطالما مشت الشحرورة بين أقسام معتقل «أنصار 3»، أو ما يُسميه الإسرائيليون «كتسيعوت»، حيث كان كتسيعوت هذا مبنىً متواضعاً بناه البريطانيون أيام انتدابهم لفلسطين، ليكون مركزاً يشرف على الحدود الفلسطينية المصرية، واستلمه الإسرائيليون، فجعلوه ساحة إعدام للجنود المصريين الأسرى عام 1956، وعام نكسة 1967، وعندها كان اسمه «كيلي شيفع» أو السجن السابع. وثمة رأي يقول: إن أصل هذا المعتقل يعود إلى أيام الامبراطورية العثمانية، حيث أقام الأتراك مركزاً لحماية القوافل المتجهة من مصر إلى بلاد الشام، وكان هذا المركز يدعى «نقطة الحفرة» أو «مركز الجورة» أو «سجن الحفرة» أو ما إلى ذلك.

التاريخ يعيد نفسه، بشكل مُكْلف، على مَنْ لا يقرأه، أما هنا في «أنصار 3»، فالتاريخ ثيّب، جربناه وَطلّقناه، وحاول أن يعود بكْراً، حتى ننزف من جديد، أو نسوق أغنامنا في جبال الضبع، كأنناَ رعاة عميان!! ومهما يكن من اختلاف، فالسجن سجن، الهدف واحد والحوذيّ الساديّ لم يتغيّر، والنهر لم يبدّل ماءه، بل إن السابح لم يخلع ثوبه كالأفاعي، ومع ذلك، لتَلْهُ الأيام كما شاءت بالدُمى التي تقطّعها في العتمة، بالمقصّ، فتخرجَ في النهاية ناقصة ذراعاً أو ساقاً. لا بأس، فنحن لسنا دُمْية، وحتى لو اعتبرونا كذلك، فإن لهذه الدُمْية رأساً، على الأقل، وشفتين حمراوين، كما يقول شارلز سيميك.

*

في آذار 1988، ومع ازدياد أعداد المعتقلين الفلسطينيين إثر تفجّر الانتفاضة، اضطرت الدولة العبرية لبناء سجون جديدة على شاكلة معتقلات النازية، فالفكر الشوفيني يعيد نفسه دائماً، وكأن التاريخ يفقد دوره وحكمته لدى سدنة هذا الفكر، وتبدو العنصرية في التاريخ خارج حدود القيمة الروحية أو الأخلاقية، وتدخل حدود المرض الذي له أعراض معينة ومدونة، منها استعمالها المفرط والعصبي لكل أنواع القوة وغرورها وأشكالها، فهي سرعان ما تقتل وتقمع وتبني السجون ومراكز الاعتقال والتعذيب، فمهّدت الرمال المحيطة بـ «السجن السابع»، وضربت اثنتي عشرة خيمة في كل قسم، ستاً مقابل ست، وبينهما مساحة تمتد إلى عشرين متراً. وكل قسم محاط بثلاثة جدران من السياج

الشائكة، تفصل مسافة متر أو أكثر بين كل سياج وسياج، حيث يرتفع السياج أكثر من عشرة أمتار، والأسيجة متقاربة ومتراصّة في الجدار الواحد، حتى أن طيراً قد لا يستطيع الدخول من بين السلك وأخيه! ودفعت إدارة السجن إلى كل قسم مئتين وأربعين معتقلاً، موزعين بالتساوي على الخيمات الاثنتي عشرة، ليصبح نصيب كل خيمة عشرين سجيناً، يحمل كل منهم أربع بطّانيات وقطعة جلد بحجم الإنسان تسمى «البُرش» يفرشها السجين تحت بطّانية هي فرشته، وبطّانية أُخرى يجعلها وسادة، وتبقى بطانيتان، هما غطاء المعتقل في ليل وشتاء الصحراء القارس الذي «يقصّ» المسمار!

وقد جعلت إدارة «كتسيعوت» ستة أقسام في كل وحدة أو مجموعة، حيث ترى شارعاً رملياً بعرض خمسة أمتار بين كل قسم وقسم، أي أن كل مجموعة أو وحدة تحتوي على ألف وخمسمئة معتقل . . . وبالطبع، كان هناك خمس وحدات هي كل «أنصار 3» أو «كتسيعوت»، أو ما يزيد على سبعة آلاف وخمسمئة معتقل.

ولمّا أدركت إسرائيل أن الانتفاضة ستستمر، وأن «حبالها طوال»، راحت تُكرّس هذا المعتقل، وتحيله سجناً مركزياً، فأمرت بتعبيد أرضية الأقسام والشوارع التي تحيط بها، وأبدلت الحفرة العميقة المحاطة بألواح زنك، وأرضيتها ألواح خشبية، في وسطها فتحات، هي المراحيض . . . راحت تبني حفراً أسمنتية جعلتها مراحيض وحمامات للسجناء. . وظل المعتقلون الداخلون، لقضاء حاجاتهم، يرون بحر الوسخ المترجرج المقرف الذي ينداح تحتهم، وتصلهم طراطيشه، بين الحين والآخر.

*

ما أن تضع قدميك على العوارض الخشبية، وتبدأ بفكّ أزرار بنطالك، لتقرفص فوق الفتحة الواسعة، لتقضي حاجتك . . ويخرج من باب بدنك ما اختزن في أمعائك من طعام تافه، حتى يبدأ خيالك يذهب بك إلى سيناريو الوقوع في المستنقع المضطرب الذي يموج تحتك . . يا إلهي!!

تخيّل لو زحلقت أو زلّت قدمك، وسقطتَ إلى الأسفل؟!

ماذا سيكون مصيرك؟

الموت في حفرة المجاري؟!

أية ميتَة هذه ؟!

انتبهَ إذاً! وثبّت قدميك، وانتبه وأنت تشطف بإبريق الماء قحفتك المسموطة . .

تخرج من المرحاض، وبقعة الماء بادية على مؤخرة بنطالك . . وتسرع إلى ماسورة الماء وقطعة الصابون تفركها، وتغسل يديك . . وتنفضهما في الهواء، أو تمررهما على جنبات قميصك، وتحمد الله أنك لم تمت، حتى الآن، في تلك الحفرة المهولة!

ولكن، مَنْ يدري ما الذي سيجري في المرّة القادمة؟

(حالما بدأ «سوان» في التعرّف على «أوديت»، بدأ يشك فيها)، وأنت أيتها الصحراء! منذ وصلنا إليك، هاجمتنا الكآبة مثل كلبة مجنونَة، تقف أمامنا، تغلق الطريق بلهاثها المبلول الأحمر، فنرجع للوراء قليلاً، حتى نتحفّز، ونجد طريقاً آخر بعيداً عن نشيجها المسعور، أو نمدّ ذراعنا في فمها، حتى نقبض قلبها الحامض، وفي الحالتين يراودنا إحساس بأننا في الفراغ، خارج الزمان والمكان .

هذه هي المرة الثالثة التي أُساق فيها إلى «كتسيعوت». كان ذلك في صيف 1989، حيث قضيت عاماً كاملاً قبل ذلك، امتد حتى ربيع 1989، حين جاءت الشحرورة، ورطنت برقمي ضمن أرقام المُفرج عنهم.

والآن، أنا في معسكر الظاهرية المُرعب، قضيت فيه هذه المرّة عشرة أيام، لم أغسل فيها يدي أو وجهي، ولم أتناول خلالها سوى خبز «الفينو» والماء، وبعض حبّات من الرزّ، فالغرفة التي كنتُ فيها مع ثلاثين فتىً ورجلاً، لم تكن تتسع لأكثر من خمسة عشر، وكان علينا أن نقضي حاجتنا، في برميل بلاستيكي يطفح بالوسخ، ويترنح أحياناً تحت مَنْ يجلس فوق فوهته المقززة... فينقلب، وكثيراً ما انقلب، فتمتلئ الغرفة والبطانيّات بالوسخ والفضلات والنتن الخانق، لهذا، كُنّا نُفضّل ألاّ نأكل، وأن نشرب ماءً كثيراً، وتحوّل الاغتسال إلى رفاهية حالمة لاستحالة ذلك، ولعدم وجود صابون أو شامبو!!

*

للغرفة، في معتقل الظاهرية، بابٌ حديدي مُغطىً بصفيح حديدي سميك، حتى لا تكاد ذرّة الهواء تدخل إلى الغرفة! لكن هذا الباب عبارة عن جرس تنبيه، يذكّرنا بقدوم الجنود إلى الغرفة واقتحامها، إذ لم يتخلَّ الجنود عن عاداتهم القبيحة، والتي كان من ضمنها أن يركلوا الباب الحديد ببساطيرهم، فيُحدث ايقاعاً خَشناً، أو فرقعة مدويّة.. تبعاً للركْلَة! وعندها علينا، نحن المعتقلين الثلاثين، أن نقف فور سماع

الركْلة، ونوجّه وجوهنا للحائط، ونرفع أيدينا إلى الأعلى، دون أن ننبس ببنت شفة!

وعندما ينشقّ الباب، ونرى جناح النهار، علينا أن نقول بصوت جماعي واحد «موخانيم يا كابتن» . . فيقوم الجنود بإحصائنا، والتأكد من أن أحداً لم يهرب!! وقبل أن ينصرفوا وينغلق الباب، لا بُدّ من صفعة هنا أو ركلة تحت الظهر هناك، أو بصقة أو شتيمة . .

يتنفسّ المعتقلون الصعداء! ويحمدون الله أنهم ما زالوا «موخانيم»، أي «جاهزين»؛ للعدّ والإحصاء، ورفع الأيدي والتوجّه إلى الجدار، وقَوْل «نَعمَ» بعد ذكر رقم السجين، وسبّ كل شيء.

وكان يمكن لهذا الموقف أن يكون عادياً جداً، السجانون يعدّوننا لدواع أمنية، ولكنني أعترف هنا أن ذلك لم يكن كذلك، لم يكن يتم بهذه الصورة الروتينية العادية .

كان الموقف فيه تعمد الإذلال والإهانة، كان يقصد من صياحنا الجماعي أن نتحول إلى قطيع لا يعرف سوى أننا «موخانيم» .

«موخانيم» لكل شيء،
لركلة غير متوقعة،
لعصا من هذا الجندي أو ذاك؟
لرصاصة حاقدة،
لسخرية من مجندة «بنت هوى» دخلت مع ضابط الساحة المكلّف بعدّنا؟

كان هذا الموقف يملأني بالحقد الأسود والأعمى، والجنون الذي يمنعني من فتح فمي والصياح «موخانيم يا كابتن» . .

ودفعني الجنون ذات مرة إلى القول للضابط: « . . . . . أُختك

يا كابتن»، وحمدت الله أن الكابتن لم يسمع، وإلا لفعل بنا الأفاعيل . . كان الزملاء يصيحون «موخانيم يا كابتن» فيتفطّر قلبي .

نادى الجنود علينا عصر ذلك اليوم، وخرجنا من الغرفة، وللحظة الأولى، لم نستطع أن نرى شيئاً، لأننا لم نر الشمس طيلة تلك الفترة، وبعد حين وقفنا بعضنا خلف بعض، وكنّا أكثر من مئة سجين، نادوا علينا كأرقام، والويل، كل الويل، لمن نسي اسمه الذي هو رقم وأعداد، -والغريب أن لكل رقم معادلة تكتشفها مع الوقت، أو سرّاً له دلالة ما!-

وبعد ساعتين، ربطوا كل اثنين بكلبشة واحدة، اليَد اليمنى لسجين مع اليد اليسرى لسجين آخر، وزجّوا بنا في موقف سيارات مُغطىً بالزنك، وكان علينا أن نظل واقفين حتى تحضر الحافلات، وتنقلنا معصوبي العيون مقيدين إلى مصيرنا المحتوم . . إلى «أنصار 3» . وبقينا ننتظر حتى صباح اليوم التالي! فهل أخبركم كيف أمضينا تلك الليلة واقفين مثل الأفيال أو الأشجار . . والجنود النزقون يحيطون بنا، وينتظرون مَنْ سيقع منا، ليتسلّوا عليه ضرباً ولطماً وركلات في كل مكان؟!

صعدنا إلى الحافلات، وكان زميلي في الكلبشة الأخ «نبهان خريشة» الذي تيسّر لي أن أتعرّف إليه منذ ثلاثة عشر عاماً، أيام كنّا طلاباً في جامعة بيرزيت، وكان - بحق- جسوراً، ومعنوياته عالية، ما أدخل الطمأنينة والبهجة إلى ضلوعي .

صعدنا إلى الباص، وأَجْلسَنا الجنودُ على المقاعد، وراحوا يعصبون أعيننا بشرائط من القماش الكاكي السميك، حتى لا نرى أو نعرف إلى أين نمضي كجزء لا يتجزأ من الحرب النفسية لهدم معنويات

المعتقلين. وعندما اكتمل الجلوس، راحوا ينادون على أرقامنا التي هي أسماؤنا، ونجيب بـ«موجود» . . . وتتحرك الحافلة، وتصل إلى مشارف «كيلي شيفع» عصراً!

لقد مرّ يوم كامل دون أكل أو نوم. لا بأس، وتدخل الحافلة إلى باحة رملية تنتهي بـ«كرفان» أو غرفة جاهزة، يجلس فيها ضابط ومعه، طبعاً، الشحرورة تلك، وطبيب، وعشرات الجنود يحيطون بالباحة. ويأمرنا الجنود أن نهبط من الحافلة، بعد أن يزيحوا العصبة عن العيون، فنهبط مثلما صعدنا. . ونصطف طوابير بعضنا خلف بعض، فيقرأون علينا، ثانية، أسماءنا الرقمية، ونقول «موجود» ثم يفكّون الكلبشات، ويتقدم كل واحد منّا بمفرده نحو الطبيب الذي يسألنا إن كان يُعاني من مرض أو مصيبة. . والجواب، طبعاً لا يهم الطبيب؛ فعنده جواب واحد هو المقبول وهو «لا يوجد به مرض!»

ثم نمضي خلف «الكرفان»، واحداً واحداً، ونخلع كل شيء عدا الملابس الداخلية، ويعطوننا قميصاً برتقالي اللون وبنطالاً كحلياً باهتاً، دون أن ينتبه الجندي إلى حجم السجين ونُمرة لباسه. . (فهناك في الأقسام بدّلوا فيما بينكم)، يقول الجندي. حسناً أيّها الجندي. ثم نتجه صوب الشحرورة التي تجلس خلف طاولة خشبية متهالكة، وتقول كلمتها المعهودة: اقعد على «طيزك» يا «خيوان»!! فنقعد على «أقفيتنا» مقرفصين، ومنظرنا يدعو للضحك المبكي، فكيف لواحد مثلي يلبس نُمرة خمسين، يتسلّم ويلبس بنطالاً نمرته أربعون، وعليّ طبعاً أن ألبسه. . حتى ولو أدخلت ساقيّ فيه بالقوة. . . وبقي الجذع فالتاً دون غطاء!!

نقعد على «أقفيتنا» كما أمرت الشحرورة، وتسألنا عدة أسئلة: اسمك؟ عمرك؟ بلدك؟ هل سجنت قبل الآن؟ أين؟ ثم تعطيك رقماً جديداً هو اسمك الجديد في «كتسيعوت» . . . وبعد أن ينهي المئة معتقل هذه الإجراءات يكون الليل قد امتد إلى نصفه . . فيأخذنا الجنود طابوراً واحداً، أيادينا خارج جيوبنا، ممنوعين من الكلام أو حتى النحنحة . . ويوزعوننا على الأقسام، ليتسلّمنا جنود آخرون، يسوقوننا خلف بعضنا، كلٌ في قسمه . . . وبالطبع، مرّ وقت توزيع العشاء . . وعلينا أن ننتظر وجبة الفطور عدة ساعات أُخرى.

يستقبلنا المعتقلون، فمَنْ كان نزيلاً، هنا، قبل اليوم فإن الزفّة تكون من نصيبه، وأما مَنْ يدخل «أنصار 3» أول مرة، فثمة لجنة وطنية في كل قسم تتعهد الأخوة والرفاق الجدد؛ توزّعهم على الخيام حسب أعمارهم وانتمائهم السياسي والجغرافي ومستواهم التعليمي والثقافي، حيث تتم مراعاة التوازن في التوزيع، ويجلسونهم في حلقة، ويتولّى مسؤول اللجنة شرح الوضع وكيفية الحياة في هذا المعتقل، بما يُدخل الطمأنينة والثبات في قلوب الوافدين .

هنا تتكرّس بشخصياتك الثلاث! لكن، يجب أن تحذر، فإن وجودك أربعاً وعشرين ساعة طوال اليوم في حيّز محدود، فيما ستضطر لأنْ تمارس كل أشيائك ، سيعني أن جانباً من شخصيتك الأولى ستنكشف، وسيراك الآخرون، مثلما تراهم، نصف عراة، كمقدمة لعُرْي يوم القيامة القادم!

شخصيتك الأولى هي أنتَ كما أنتَ، كما ترى نفسك وحدك أمام المرآة، أو المرأة التي أطلت الحياة معها، أو كما ولدتك المرأة الأُم!

ولكي تُغطي ثغرات الأولى، عليك أن تلبس قناعك المُهذّب الأنيق . . لتصبح مقبولاً . . ! والقناع إما إسقاط أو تبرير أو كل آليات التعويض أو الارتكاس أو . . .

أما ما تصبو إليه، وما ترغب أن تكونه، لتتطابق مع النموذج المثالي، فهو شهوتك الدائمة، ورغبتك الباقية . . وهي شخصيتك الثالثة .

وبقدر ما تتخلص من قناعك، وتعيش بشخصيتك الأولى، بقدر ما تكون صادقاً ومعافىً وحقيقياً، لكننا يا صديقي، مضطرون لأنْ نكون بعضنا مرايا بعض . . فلا بأس ! !

. . لهذا يقولون إن السَفَر أو السجن يُعرّف الناس بعضهم ببعض، ويكشف المعادن ! ! والحقيقة الأكيدة هي أننا عرفنا بعضنا جيداً، وتم فرزنا جيداً . . فشكراً لغربال السجن هذا، وسحقاً له، أيضاً .

*

يا شماتة الأصحاب! ما أن رأوني أحمل بطانيّاتي، وأطلّ برأسي . . حتى تنادوا . . وقالوا : رجع المتوكلّ . . هيه . . ويصطف الأصدقاء والمعارف خلف السياج «الشيك» . . كأنّهم يستقبلونني، ضاحكين، مازحين، شاكرين الله أن أعادني إليهم ! !

وبالطبع يسأل أحدهم عن «الوضع» خارج السجن، وآخر يسأل عن «البلد» وآخر عن «فلان» . . إلخ، لكنني بالتأكيد أكتفي بهزّ رأسي، ضاحكاً دون صوت . . حتى لا أمضي الليلة في الزنزانة عقاباً على «كلامي» معهم !

يريدنا الاحتلال الإسرائيلي أن نصبح جزءاً من هذه الصحراء، إحدى فسيفساء التوحّش فيها، ولو كنتُ وحدي في هذه الصحراء، فربما أصير ذئباً يطأ الحنظل والعوسج، ويضرب بمخالبه جحور الضبّ، وتتهدل أكتافه، وتزهر عيونه كالمواقد، ويبدأ أنفه، بخنفرته الخشنة، يشمشم آثار الرمم، وبول البقر الوحشي.

لكنني لستُ وحدي، لأن هذا الحراك البشري يُكرّس آدميتي ويبقيني بشراً، رغم مصارعة هذا التنّين الذي له ألف رأس من الرمل والرصاص والسياج.. تُطالعنا أنّى تحركنا أو غفونا أو أكلنا، وتظل الكلمة والصرخة فزّاعتين تُبعدان الوحش الذي يضرب رؤوسه في بعضها، فتُحدث زلزالاً مُريباً، يوقظ وحوشاً جديدة، تُخرج رؤوسها من تحت الرمال.. وتحاول أن تحاصرنا، فنصرخ.. لنظل بشراً، نطأ الأرض المُمهّدة، ونغفو على زهرة سوسن، تتراءى لنا من بين الرؤوس.

*

تستيقظ مرهقاً، كأن تعب الزمان كلّه حلّ في بدنك، تقوم متثاقلاً، تغسل وجهك كأنك تصفعه بالماء البارد.. وتجلس بلا مبالاة على الأرض، دون اكتراث، ولا تنظر لشيء.. كأنك وحيدٌ على قمة هرم من الغبار اللامتناهي.. ويمضي الجنود، ويجيء الفطور.. فلا تأكل! ثمة حجر خشن يسدّ بلعومك! تنهض، بعد أن تبلّ جرعةُ شاي جفافَ فمك، وتشعل سيجارة «أُسكت».. وتمضي إلى الخيمة، تعيد فرْش البطانيات، وتسقط على وجهك في نوبة بكاء، تحاول أن تخفيه، بأن

تغمر وجهك في البطانيّة الوسادة، حتى يدخل أحد الأصدقاء، ويسمع نهنهة صدرك، واضطراب رأسك المهتزّ . . يقترب منك . . ويمسّد شعرك، فتنهض، محاولاً إخفاء وجهك، وبكُمّ قميصك تمسح دموعك . . فيشعل لك سيجارة ويعطيك إياها . . ويسود صمت كاوٍ . .
تحاول أن تنظر إلى عينيه، فتجد ماءً زجاجياً يبرق فيهما . .
– لماذا نعود إلى هذا المعتقل؟
الظُلْم ثقيل . . ثقيل . . ثقيل . .

*

في أيار من العام الماضي أي عام 1988، كنتُ قد خرجت من فترة «التحقيق المركزي» في أقسام المخابرات في طولكرم ونابلس، وكان طبيعياً أن تنمو لحيتي وشعري وأظفاري، وأنا في «الخزانة» و «الإكس» مدة ثمانية وسبعين يوماً، ابتدأت من نهاية شباط حتى مطلع أيار، رأيت فيها ما يدور في القبر بعد الموت! بعدها تمّ تحويلي إلى الاعتقال الإداري، حيث تم نقلي من زنازين سجن نابلس إلى معتقل الفارعة المهول، الذي كان إسطبلاً لخيول الانتداب والجيش الأردني، ثم أصبح زنازين لخدمة شهوة اليهود الساديّة. فما أن تدخل معتقل الفارعة حتى يتلقاك الجنود بهراواتهم، قبل أن ينزعوا العصبة عن عينيك، وبعد «حفلة الاستقبال» (الضرب مدة ساعة) يتلقّاك الطبيب والجنود، يسألونك، ثم يعطونك رقماً؛ اسماً جديداً، ثم تذهب إلى «ساحة الشبح»، وهي مساحة تقدر بنصف دونم، يأمرك الجنود، وقد أحكموا الكلبشات حول معصميك،

أن تقف آخر الساحة، مقابل جدار اسمنتي، وعليك أن ترفع يديك إلى الأعلى وكذلك أحد ساقيك . . والويل كل الويل لو أنزلت يدك أو رجلك . فالمسموح هو تبديل الساق بالساق الأخرى فقط! وتبقى مشبوحاً هكذا مدة لا تقل عن يومين كاملين دون طعام أو شراب، والوجبة الدائمة هي اللطم والهراوة، والبُسْطار الذي يُلصقك بالحائط. ولزيادة وجبة العذاب والإهانة، فإنه ليس من المستغرب أن يرمي الحراس فوقك قشر البطيخ أو قاذورات أخرى مختلفة، ولكنك تتوقعها من لزوجتها أو رائحتها الكريهة . ولقد أصبح ذلك الجدار شبيهاً بحائط البراق، غير أن هذا الجدار أكثر قداسة من حائط المبكى الذي سرقوه من البراق، وجعلوه شاهداً على تضرّعهم الكاذب ودموعهم المخاتلة الوقحة . . ثم يأخذونك إلى الزنزانة ويزجّونك أنت واثنين آخرين فيها، رغم أن مساحتها، بالضبط، بمقدار القبر. ويتم تسليم كل واحد ثلاث بطّانيات، ويسمح لنا أن نخرج من الزنزانة، إلى الحمّامات يومياً، لقضاء حاجتنا مدة خمس دقائق بالثانية! حتى أصبحنا حالة اشتراطيّة نفسية، لا تتحرك أمعاؤنا، ونشعر أننا «سنعملها» إلاّ عندما يطقطق المفتاح في الباب . . فنتسابق على المراحيض . . ونخرج منها للحنفيات، لنغسل أيدينا ووجوهنا، ودون صابون طبعاً، رغم أن المراحيض فيها برابيج مياه لنغسل القحفة بعد الغائط، ولكن من أين لنا الصابون أو ورق التواليت!! ساق الله . . وعلينا، طبعاً، أن نفرك أيدينا جيداً لننظفها . . دون جدوى ، ونضطر لنتناول ربع رغيف الفينو وحبّة البطاطا المسلوقة باليدين ذاتهما، ونضع بأصابعنا اللقمة تلو أختها في فمنا، وطبيعي أن يكون هناك «جردل» (دلو بلاستيك) داخل الزنزانة لنقضي حاجتنا الخفيفة

فيه! ولا أُنكر أن بعضنا كان يضطر - إذا أصابه الإسهال - أن «يعملها» في الجردل . . . وطبعاً لا ماء ولا ورق ولا صابون، بل رائحة فوّاحة!!

*

لم يذهب الشتاء تماماً! ولم يسحب أذياله الرمادية، وكنّا مشبوحين أمام حائط الصفع، في ساحة الفارعة، وجادت السماء بالمطر . .
كان الجنود يلبسون «الأفرهولات» المانعة، كأنهم دببة هجينة داكنة، أمّا نحن فكان لزاماً علينا أن تبقى أيادينا مرفوعة إلى الأعلى، ونقف على رجل واحدة .
وفجأة، أحسستُ يداي أنهما غُصنا شجرة، وأنني جذع شجرة منزرعة في الأرض، وبعد قليل، ستضرب جذوري أكثر في عمق الأرض، وستبرعم أصابعي وذراعاي، وستطلق أذناي وأنفي وبُصيلات شعري ورقاً . . . وسأصبح مثل الجميّزة الراسخة . . .
وبدأ النسغ يصّاعد من أخمص قدمي، إلى جبيني وأطراف أصابعي، وأصبح جلد جسدي سميكاً وأكثر صلابة وخشونة، وها هو كتفي ينفتح ليخرُج غصن جديد، وتنشقّ خاصرتي ليطلع منها برعم جديد، وأطلّت الشمس بعد قليل، فعادت الطيور، وحطّت على القضبان الخضراء المتنامية، فيما بقيت عيناي فتحتين أعلى الجذع، تراقبان هذه الشجرة المُمرعة التي كادت تُغطي بجذوعها معظمَ ساحة الشبح . .
بعد منتصف الليل، استيقظتُ فوجدتُ نفسي مُمدّداً في زنزانة مع اثنين من المعتقلين . . يسهران على رأسي، وما أن فتحت عيوني حتى قالا :

الحمد لله على السلامة . . لقد توقف النزيف . . والجرح في رأسك غير عميق . . كيف حالك الآن؟

*

أذكر ذلك الآن بإلحاح . بعد إحدى عشرة سنة، ذهبت بصحبة العزيز الشاعر غسان زقطان لنحيي أمسية شعرية في سجن الفارعة الذي أصبح مركزاً شبابياً، تم تأهيله ليكون مركزاً للنشاطات الرياضية والدورات التثقيفية، ويتبع لوزارة الشباب والرياضة الفلسطينية.

. . . وعندها طلبت أن تكون الندوة الشعرية في الساحة، ووقفت، بالضبط، قبالة جدار الشبح والصفع، ولعلها من أكثر الندوات الشعرية المؤثرة، والمشحونة بكل تلك الصرخات والأوجاع . . . والمحمولة على الضربات التي ما زلت أسمعها، على بوابات «الخزائن» الحجرية! وبعد الندوة ذهبنا في جولة داخل المعسكر، ورأى أخي غسان زقطان المكان الذي تم حبسنا فيه، والخزائن التي كانت تنطبق مثل القبور على المعتقلين المحشورين فيها.

والخزانة هي غرفة من الباطون المُسلّح، طولها سبعون سنتيمتراً بعرض سبعين سنتيمتراً، ولها باب حديدي سميك، يتم زجّ المعتقل داخلها مقيّداً بالكلبشات، وعلى رأسه كيس خيش كريه، ويظلّ المعتقل واقفاً داخل تلك الخزانة إلى ما شاءت المخابرات . . . وقرارات التعذيب.

وتنتشر هذه الخزائن في كل مراكز التحقيق، وإلى جانبها تقع «الإكسات»

التي هي زنازين صغيرة، وسُميّت بـ «الإكس» للتدليل على شطب مَنْ يدخل إليها.

بعد أيام قليلة من تلك الندوة، كتب غسان زقطان يقول:

«كان المكان يبدو أليفاً بممراته المرتبة وطرقاته المرصوفة، غرف النوم وقاعات الدراسة، نوع الأثاث، ولون الجدران النظيف، الزهور المسقية حديثاً، كل شيء كان يوحي بالألفة، حتى أولئك الأطفال الذين يعبرون الشارع الرئيسي قادمين من المخيم ليقفوا على الباب ويحدقوا في الداخل... هذا العبور الآمن كان يذهب بنا إلى الألفة التي تعم المكان وأشجاره وطيوره.. هكذا كان «مركز الفارعة»؛ سجن الفارعة سابقاً عندما وصلنا، أخي المتوكل طه وأنا، بناءً على دعوة من أصدقاء.

خلف البناء الدراسي الرئيسي تقع الباحة الكبيرة، وحولها تتوزع صفوف من الإسمنت بأسقف منخفضة:

- هنا غرف التحقيق
- هنا الخزانات
- الخزانة زنزانة ضيقة جداً، أشبه بتابوت يوضع داخله المعتقل..
- هنا ساحة «الشبح»
- هذه هي «الزنازين»

في الممر الضيق الذي تتوزع على جانبيه زنازين ضيّقة كانت تتردد أسماء المعتقلين، في حين أحاول أن أقرأ ما لم يتمكن الدهان الجديد من إخفائه.. أسماء وإشارات وتواريخ وشعارات، هنا كانوا، مئات منهم أولئك الذين يتذكرون هذا المركز الهادئ الذي نعبر طرقاته النظيفة.. عندما كان سجناً.

لم أكن هنا، ولكنني أستطيع أن أتذكر سجن الفارعة أيضاً، الذي ارتبط لدي بأخبار قصيرة ومؤلمة وأسماء شعراء وكتّاب وفنانين ومناضلين محترفين حملتهم إليه شاحنات الليل معصوبي العيون والأيدي على مدار سنوات الاحتلال الطويلة تلك.

أفكر، فيما يواصل الأصدقاء ذكرياتهم، أنه كان ينبغي الاحتفاظ بالمكان، أو على الأقل بهذا الجزء منه، كما كان، بصفته شاهداً على بربرية الاحتلال، وعلى صمود أهلنا.. متحف للذاكرة.. ليست الشفهية التي أسمعها الآن فقط، ولكن تلك الموثّقة والمكتوبة.. حيث لا وقت للنسيان».

*

... وللتاريخ، فإنني أمضيت في الخزانة، في مركز التحقيق بطولكرم، مدة اثنين وثلاثين يوماً، ليلاً ونهاراً فقط.. سبقتها أربعة أيام أمام العديد من المحققين، دون أن يُسمح لي بالنوم دقيقة واحدة. ثم تمّ زجّي في «الإكس» حتى الساعة الأخيرة من الأيام الثمانية والسبعين التي أمضيتها متنقلاً بين الجلوس أمام المدفأة، ثم إخراجي شبه عار ومكلبشاً تحت المطر حتى ساعات الصباح، وبين الضغط النفسي، والتجّويع والترهيب، أو بين حمّامات منتصف الليل المثلّجة، أو تركي مكلبشاً وكيس الخيش الكريه على رأسي أياماً متوالية، مهملاً.. هكذا، أو منعي من قضاء حاجتي، هذا عدا الشبح المتواصل حتى الخدَر أو الشلل!

*

يدخل المحقق، وهو مسلّح بشعار واحد، ويظلّ يحفر في بقعة واحدة، ويحفر لعله يجد شيئاً، ويدخل محقق آخر، ويحمل شعاراً آخر، ويروح يجزّ بمبضعه على نغمة واحدة في زاوية محددة. . لعله يستخرج شيئاً ما، ويدخل محقق ثالث ورابع وعاشر. . وهم مُتفقون على مجموعة من النقاط، حيث تشكل هذه النقاط دائرة كاملة، يحاولون سلخها. . . والنفاذ منها إلى قلبك وعقلك. . والسخرية في الأمر كله أن هؤلاء يعتقدون حقاً أنهم الأذكى والأرفع، وأنك بالنسبة إليهم مجرد فأر تجارب، تنكسر عند نقطة معينة، وتنهار في مستوى معين من الضغط النفسي أو الجسدي «المعقول» أو غير المعقول، ولوهلة ما تشعر أنهم يطبّقون عليك الأساليب التي يتعلمونها في التحقيق، ثم، وفي لحظة واحدة، تنكسر هذه القشرة الرقيقة اللامعة، ويظهرون كامل أحقادهم وعنصريتهم، ويتحولون بعدها إلى ثيران وجواميس وخراتيت لا يفهمون ولا يمارسون سوى القوة، والقوة فقط. . عندها تسلمهم جسدك الأعزل الطري. . تنكمش على نفسك، تخاف قليلاً، ولكنك تعرف أن النجاة قريبة.

لكنك تواجههم بأنهم ليسوا بشراً، بل محترفو تعذيب وإرهاب، وأن ادعاءهم بالحضارة والأناقة ما هو إلاّ قناع، سرعان ما يتهتك، أمام أصغر حقيقة من حقائق وجودنا وحقّنا، في الحياة مثلهم. . تماماً!

وبشكل مباشر تقول لهم: إن الشبح والتجويع و«دُشّات» الماء البارد والكلبشات. . ما هي إلاّ أدوات تحاولون من خلالها قهرنا وإخضاعنا، ولكن عليكم أن تختصروا الوقت، وتطلقوا الرصاص علينا، لإنهاء هذه الملهاة المُرّة التي لن تُفضي إلا إلى تعميق الكراهية، أما البديل فهو

الاعتراف بالحقائق الساطعة، وبأنّ ما تدّعونه من معلومات ما هو إلاّ تخيلات وأكاذيب وأحاج. .
وما عليك، أيها السجين، إلاّ أن تبدو أكثر تماسكاً وزهواً بعد كل »حفلة« شبح أو حمّام أو خزانة. .
ولا تنسَ أن تُذكّر المحققين بأنهم موظفون، ولهم صورة البشر، وعليهم أن يتصرفوا كالآدميين . . وأن العنف والإذلال له نتيجة واحدة، هي إعادة التأكيد بالكلمات نفسها على مسامعهم . . فعندها سيفقدون أعصابهم. . وستضحك، دون أن يلحظوا ابتسامتك المنتصرة!

*

بعد أسبوع كامل، تم نقلنا من معتقل الفارعة، وكنّا أقل من عشرين معتقلاً، في حافلة، معصوبي العيون، والكلبشات تدمي معاصمنا، إلى سجن «عتليت» الواقع بين الطنطورة وحيفا، وصلنا منتصف الليل، وبعد الإجراءات نفسها، أدخلونا إلى غرف السجن الذي ذكّرني فور رؤيته بسجن عكا القريب، وثورة البراق، والشهداء الذين تسابقوا إلى المشانق فيه . . و«من سجن عكا طلعت جنازة محمد جمجوم وفؤاد حجازي . . وثالثة الأثافي عطا الزير» .
في سجن عكّا أمضى والدي سبعة أعوام معتقلاً، أيام الجهاد ضد الانتداب والعصابات الصهيونية، والشهود يؤكدون أنه تمّ أسرُه وكان جريحاً عام 1932، ليخرج بعين واحدة، ويد تشهد على ثلاث رصاصات، وساق تشهد على شظية شقّت اللحم والعظم!! رحمك

الله يا أبي، أيها الشيخ الذي جاء بي إلى هذه الدنيا. . ليرحل عنها، وفمي ينقط باللّعاب. . .

رحمك الله يا أبي، لقد أورثتني السجن والقصيدة. . .

أبي، يا أبي
يا حنينَ الترابْ.
- ترابٌ تغنّى قليلاً . . وغابْ -
. . أذكرُ لمّا تكفّنْتَ بالزعفران ودمعِ النساء
بكيتُ، وما كنتُ أعرفُ أنكَ تمضي
لدرب السرابْ،
وأذكرُ لمّا دُفنْتَ وصلّوا عليكَ،
رجعتُ وفيّ غموضُ اليتيمِ
وحزنُ السحابْ.
وأذكر أني دُهشْتُ من الموت . .
كنتُ صغيراً، ولم أعرف الفَرقَ
بين الجنازات - تمضي إلينا -
وبين الشبابْ،
وأذكرُ لما دخلتُ . .
تفتّقَ دمعُ الأرامل حُزناً عليّ
وقُلْنَ: تيتّمَ طفلاً . .
وما كنتُ أعرفُ
أن الذي ماتَ شيءٌ بأُمي
فمن يومها لم تَضعْ عطرَها الياسمينَ

ولم تكتحلْ لليالي الملاح
وما عَجّنتْ لابنتيها الخضَابْ .
وأذكرُ أني تحاشيتُ منَ أن تراني
ولكنها لطمت وجهها . .
والفجائعُ تخبو وتعلو
بصوت اختناق وصوت انتحابْ ،
تَسَمّرْتَ ُ؛ ماذاً؟ أأبكي َ،
أأَصمتُ، ماذا سأفعلُ؟
أصرخُ مثل اللواتي مَزَعْنَ الضفائرَ فوق الرؤوسِ
وقددْنَ، فوق الصدور، الثيابْ؟
وماذا أقولُ لهذي التيَ انتظرتهُ طويلاً ؛
ومن سجن عكّا أتاها جريحاً
وقد مَزّقتهُ سيوفُ الخيانة
والانتدابَْ؟
أبي . يا أبي كنتَ أنتَ الكبير
وكنتُ صغيراً، صغيراً
ولم أعرف الكلمات التي
تُطفئ النارَ في مرجلِ الحزنِ والاضطرابْ
أبي . .
يا أبي لم أُداعبْ يديكَ . . .
تصبّ الحنانَ، وطيْبَ العقابْ
ولم أتعلّق بقمبازكِ الصوَفِ

- لمّا تروح هناكَ -
تقول لأُمي: سأرجعُ،
لا تقلقي إن تأخرتُ ليلاً . .
وكانت تنام
وعينان تنظرُ وَقْعَ الرجوع
وإغلاقَ بابْ
ولم تُعطني يومَ عُدتَ من المسجدِ العُمري
سوى بضعة من قروش
لأبتاعَ ريحَ المراجيح فيَ العيد . .
لكنّها حين ضاعت . . بكيتُ . .
ولم تلتفتْ لي حين قلتَ:
انطَلقْ للصحابْ
ولمّا رجعتُ من الصفّ . .
قلتُ: أبي . قد أخذنا دروساً . .
وإني حفظتُ دروسي جميعاً،
فلم تُعطني بعضَ حلوى . .
وقلتَ: انتبهْ للكتابْ
ولمّا انكببتُ على أُمّ رأسي في الحوش . .
قلتَ: انتصبْ! كيف تبكي وأنتَ كبير؟
وما كنتُ - سامحكَ الله - إلاّ صغيراً
يخافُ الرعودَ . .
ويَنْقُطُ من شفتيهِ اللّعابْ . . .
أبي . .

كانت غرف سجن «عتليت»، أقرب ما تكون إلى العقود العتيقة أو البيوت ذات الأقواس الضخمة، مقسّمة إلى عدة غرف تفصلها قضبان حديدية غليظة وقاسية . . . وقديمة.

أمضينا تلك الليلة، ليحملونا ظهر اليوم الثاني من حيفا، شمال فلسطين، إلى «كتسيعوت» جنوب بئر السبع، في قلب صحراء النقب، على الحدود المصرية!

*

يطيرُ بنا التمنّي كأنّه قضاء غامض، ونحن نرتحل من مكان إلى مكان .
ماذا لو أصابت سائقَ هذه الحافلة سكتةٌ قلبية، وتدهورت الحافلة في أحد الوديان . . عندها سيكون هؤلاء الجنود جثثاً هامدة. . أما نحن، فستتمكن من الهرب . .
أو . . ماذا لو اجتمعت الدول العربية، وشنت حرباً كاسحة ضد إسرائيل، عندها سيتركنا الجنود داخل الحافلة، وسيهربون، وستدخل جحافل العرب المنتصرين ليكسروا حديد الكلبشات، ويسقونا الماء . . ويقولوا لنا: الله يعطيكم العافية. .
أو . . ماذا لو استطاع واحد منّا أن يُفْلت إحدى يديه من الكلبشات، ويفاجئ الجندي الحارس، وينقضّ عليهَ، ويأخذ سلاحه: عندها سنأخذ الجنود رهائن، ونحظى بـ «تبادل» يُحرّرنا جميعاً من السجن .
أو، ماذا لو كان سائق الحافلة عربياً، مدسوساً بين الجنود، وفجأة يوقف الحافلة، ويشهر سلاحه المخفيّ في وجه الجنود . . ويُطلق سراحنا . .

أو . . ماذا لو أبرقت وأرعدت . . وهطل المطر مدراراً . . ونزلت صاعقة على هذه الحافلة . . فحرقتها، عندها ستتمكن من الإفلات وسط هذا الماء المشتعل الصاخب . .

أو . .

فجأة! يعلو صوت أحد الجنود، بلغته العربية الثقيلة، وهو يصرخ في أحد المعتقلين عندما حاول أن يرفع، قليلاً، العصبة عن عينيه، لعلّه يرى إلى أين نمضي.

. . وماذا لو!!

*

وصلنا تلك الليلة، من أيار، وكانت الحافلة مكتملة العدد، وبعد أن تعرّفنا على الشحرورة، وجُملتها المشهورة، دخلنا المعتقل الذي لم يكن حينها إلاّ معتقلاً صغيراً مكوّناً من وحدة واحدة، أو ستة أقسامٍ، تنام على الرمل وتصحو على عقاربه وأفاعيه التي عقصت ثلاثين سجيناً، ولدغت عشرين آخرين. وقتها كان لا بُدّ من أن يجتمع ذوو الخبرة من المعتقلين؛ سجناء سابقون، وطلبة جامعيون، وأعضاء نشيطون في الفصائل الوطنية، لتنظيم حياة المعتقل. . . وبدأ بالفعل الترتيب لذلك . . . وخلال أسبوع واحد، كان النظام قد تم تعميمه، وتم تشكيل لجان النظافة، والمطبخ، والأمنً، والفصائل، واللجنة الوطنية العليا، ولجنة الصندوق والطعام والنشاطات، خصوصاً أن المخضرمين في المعتقلات قد تم نقلهم جميعاً من سجن جنيد غرب نابلس، إلى معتقل «كتسيعوت».

بعد أن تكاثرت حوادث لدغ الأفاعي عدداً كبيراً من المعتقلين، وأصبح مرأى العقارب مريباً ومرعباً، اقترحت لجان الأقسام أن يسهر، كل ليلة، ثلاثة من المعتقلين، في كل خيمة، لحراسة السجناء من الأفاعي والعقارب . .

لكن غسان الحرامي «أبو زياد» صاحب النوادر، كانت لديه وجهة نظر أخرى، لها وجاهتها وفتنتها! وهي أن يقوم الشيخ أحمد بـ «التعزيم» على الأفاعي، وحبسها في دوائر، ومن ثم «تنظيمها» لصالح المعتقلين، وإعطائها الأوامر لتلدغ الجنود!

– لكن الشيخ أحمد لم يكن حاوياً في يومٍ من الأيام يا حرامي!

. . وتروق الفكرة لعماد عامر الذي أصبحً اسمه في المعتقل، لوسامته، «شيتا» . . فيحملها، ويبدأ بالترويج لها . . لتصل الفكرة اللمّاحة إلى الشيخ أحمد، فيهشّ ويبشّ، ويبدأ الإدعاءَ بأنه يستطيع أن يقيّد الأفاعي ويطرد العقارب الصفراء!!

وكم كانت دهشتنا، عندما كان يقفز الشيخ أحمد فجأة، حاملاً حذاءه، ويقلب إحدى البطانيات ويبدأ طرق حذائه . . فنرى العقرب المتفسّخ بفعل ضربات الشيخ!

. . وبعد أيام قليلة، بدأت لجنة القسم تواجه مشكلة حقيقية، مفادها أن كل المعتقلين، تقريباً، يريدون أن ينتقلوا إلى النوم في الخيمة التي ينام فيها الشيخ أحمد . .

بعد أُسبوع تقريباً، تم نقل الشيخ أحمد إلى عيادة السجن. لقد لدغته أفعى! ومن فضل الله عليه، أنها كانت «فرخاً» صغيراً . . غير مهلك!

*

تصحو مبكراً، فترى شال الغبش ينسلّ برشاقة، ليجلو الطريق في الأفق، أمام حبال الشمس الطالعة من الشرق، هذا فجر الصحراء . . فما على البدوي النائم، في ضلوعي، منذ عشرين قرناً، إلاّ أن يصحو الآن، ليرفع ستائر خيمته، لتدخلها مياه الشمس، ويرتّب بطانياته، ويطوي فرشته البلاستيكية، ويركزها مكانها . ويُلقي تحية الصباح على زملاء الخيمة، ويذهب إلى الماسورة التي تقذف ماءها البارد ليَغسل وجهه، ويفرك قطعة الصابون برفق، حتى لا تذوب، لأن إدارة السجن صرفت قطعة صابون صغيرة واحدة، ولمدة أسبوع، لكل خيمة . . لاستعمالها في غسل اليدين والوجه، والحمّام الأسبوعي .

ومع تمام السادسة صباحاً يكون كل المعتقلين قد افترشوا الأرض، على شكل أسراب متتالية، ليأتي الضابط وثلة الجنود، لإجراء «العدد» أو إحصاء المعتقلين . وطبيعي أن ينادوا على أرقامنا، لنقول «موجود»، ثم لا نقوم عن الأرض أو نأتي بأية حركة، حتى يخرج الجنود، وينغلق الباب بالمفتاح! لكن عشرات الجنود المنتشرين، في الطرقات الفاصلة بين كل قسم وآخر، يظلّون على حالهم، متمنطقين أسلحتهم، ومدافع الغاز . . والكلاب تلهث حولهم، تلحمس أيديهم التي تحاول أن تداعبها .

وعند الساعة السابعة، بالتمام والكمال، يدخل «الشباب» يحملون طناجر الشاي وطعام الإفطار . . ويبدأون بالتوزيع، حيث يبدأون كل وجبة، من عند الخيمة الأولى، ثم يبدأون في اليوم الثاني، من عند الخيمة الثانية، وهكذا .

أما الإفطار، فهو ملعقة تطلي «مربّى» وثلاث شرائح خبز فينو وأربع حبّات زيتون، وقطعة «مرجرين» زبدة ونصف بيضة . أو يكون

حبة بطاطا مسلوقة، وأربع حبّات زيتون، ونصف بيضة و«مرجرين». أو يكون حبة بطاطا مسلوقة، واربع حبات زيتون، وحبة بندورة. أو مغرفة فول، مع أربع حبات زيتون وسنتيمتر مكعب من المرجرين .. وطبعاً يحمل كل واحد منا كوب الشاي البلاستيكي، ليدلحوا له من هذا السائل الأسود، الذي لم نشربه ساخناً، بل فاتر ومزّ، أو شديد المرارة أو التحلية.

بعد الفطور، ينهض ثلاثة معتقلين، من الخيمة الأولى، ويجمعون الكؤوس والصحون البلاستيكية، ويذهبون بها، في صندوق بلاستيكي كبير، إلى فتحة ماسورة الماء ليغسلوها! وفي اليوم الثاني ينهض ثلاثة معتقلين آخرون، من الخيمة نفسها لغسل أطباق الغداء، ويليهم ثلاثة آخرون لغسل أطباق العشاء.. وتدور دوائر الغسل على كل المعتقلين، دون استثناء، ويكون ذلك، طبعاً، بإشراف لجنة التنظيف التي غالباً ما تُصدر أوامرها لِمَنْ غسلوا أطباق الصباح لينظّفوا الساحة من أعقاب السجائر أو بعض ما تطاير من ورق.

مع الساعة العاشرة، تبدأ لجان النشاطات العمل، حيث يتم تقسيم المعتقلين إلى مجموعات. فهذه مجموعة لمحو الأميّة، وتلك مجموعة تعلّم اللغة العبرية، وتلك الانجليزية، وتلك الفرنسية، وتلك لتعلّم النحو والصرف، وتلك لتحفيظ القرآن وتفسيره، وتلك لقراءة الكرّاسات والكتب التي وضعتها اللجنة لمجموعة ما لقراءتها حتى تتم مناقشتهم بمضامينها بعد أسبوع.. وهكذا.

وعند الساعة الثانية عشرة منتصف النهار، يدخل «الشباب» حاملين طناجر طعام الغداء المكوّن من مغرفة رزّ صغيرة، ومغرفة شوربة

بزر مكانس، أو مغرفة شوربة عدس، أو شوربة يخنة بطاطا أو بصل، وثمة نصف حبة برتقال، أو نصف حبة تفاح، أو نصف قرن موز، مرتين أسبوعياً، يتم توزيعها على المعتقلين!

وحين ينتهي «الاخوان» من الغداء، تبدأ لجنة النظافة الإشراف على غسل الأطباق، وتكليف ثلاثة معتقلين جدد لهذه المهمة، وعند الساعة الواحدة ظهراً، يرفع أحدهم الأذان لصلاة الظهر . . . وهنا مشكلة المشاكل!!

فلقد منعت إدارة المعتقل المعتقلين من ممارسة ثلاثة أشياء رئيسة في ساحة القسم، وهي: الصلاة أو رفع الأذان، ثم الرياضة والتجمّع لأكثر من اثنين، ثم الغناء أو إقامة الاحتفالات .

لكن المعتقلين أصروا على رفع الأذان - وعندما سمعت الأذان في ذلك المكان لأول مرة، شعرت بالصوت العذب والكلام العذب يكسر الحواجز والأسلاك، ويحيل الحصار والصحراء والشمس إلى رياض غنّاء تنضح بالزهر وسلسبيل الماء - فدخل الجنود، واعتقلوا المؤذّن، وزجّوه في الزنزانة! فخرج مؤذّن آخر، فاعتقلوه، وخرج مؤذن ثالث. . فاعتقلوا، حتى ثلاثة وعشرين مؤذناً اعتقلوا في يوم واحد . وما كان من حنّا الساحوري إلا أن تبرّع برفع الأذان لصلاة الظهر . . ومن يومها أصبح «حنّا» أحسن مؤذن للمسلمين وأشجع مَنْ رفع الأذان!

ولمّا اعتقلته إدارة السجن، وقالوا له: أنت مسيحي، فكيف تصلّي صلاة المسلمين؟ قال «حنّا» لهم: تلك كانت معركة بيننا وبينكم، ولم تكن بين المسلمين واليهود . ثم إن رفع الأذان هو واجب وطني . وفوق كل ذلك: إذا سجنتم كل المسلمين في الزنازين، فإنني سأرفع الأذان

وسأصلّي بدلاً منهم . . وسأبقى على ديني . . ولا تعارض بين هذا وذاك .

أما الصديق المرح فؤاد كوكالي، فقد اعتبر موقف الأخ «حنّا» سابقة يجب الاعتراف بها، والحسبان لها، خاصة أن المسلمين زادوا «صوتاً» في حين كسب المسيحيون «مسلماً» إضافياً . وبالطبع يختتم كوكالي جملته بضحكة طفل بريء . . لا تنتهي قهقهته، حتى تدمع عيناه، فيستغفر الله، بكل الديانات .

وكالعادة، وضعت إدارة السجن حنّا في الزنزانة فترة مضاعفة . . وعاقبته ثلاثة أضعاف ما عاقبت به المسلمين .

في تمام الساعة الثالثة ظهراً، تُعاد كرّة «العدد»، وربما، بل غالباً، ما تتركنا إدارة المعتقل جالسين على الأرض اللاهبة مدة وصلت الساعة أو أكثر، حتى «تُشرّفنا» وتحصينا . وبالمناسبة، لقد طلبت إدارة السجن منّا، وقت العدد، أن نضع أيدينا خلف ظهورنا، ونطأطئ رؤوسنا، ونجلس متربعين على الأرض، دون أن يُسمح لنا بافتراش كرتونة أو ثوب أو بطانية . . لكن المعتقلين، وبإصرار، كانوا يضعون أيديهم أمامهم، ويرفعون رؤوسهم . . وبالتدريج تغاضت إدارة السجن عَمّن وضع شيئاً تحته وقت العدد .

*

أيها الجندي القابض على بندقيته، كأنها حرْز مُقدّس! لماذا، وأنتَ ترى حالنا، والظلم الهائل الذي يبهظنا، لماذاَ، لا تصرخ في وجه قائدك، وترمي سلاحك في وجهه، وتنتصر للعدالة؟

اطمئن أيها الجندي! لا نريد ذبحك، أو إلقاءك في البحر! فلماذا يطيب لك القهر والإذلال والتجويع والضرب؟! لماذا؟

ماذا صبّوا في قلبك، وماذا قالوا لك عنّا؟

مَنْ الذي عبّأ عقلك بكل هذه الكراهية العمياء؟ وكيف لك أن تحتمل كل هذا الظلام بداخلك، وهذه السموم بأنفاسك! وكيف لم تمت من ثِقَل ما حشوك به من موت، وجعلوك مشوّهاً إلى هذا الحد؟

هل ترى عيناك أيها الجندي، غير الذي تراه عيون البشر؟ وهل تسمع أذناك غير الذي تسمعه آذان الناس؟

ألم تر ما يَفعله قومك بنا؟ ألم تسمع الصرخات والولولات والأنين؟

كيف تسمح لك إنسانيتك أن تكون شريكاً في ساحات الإعدام؟

ألم تلاحظ أننا بشر مثلك، لنا عيون ووجوه وأيدٍ وأرجل . . وأننا نأكل ونشرب ونمشي . .

إن صمتك، أيها الجندي، وحَمْلك هذا السلاح، وسرعتك في سحب أقسام البندقية، وإطلاق الرصاص، جعلتني أحلم ليل نهار كيف أُطبق بكلتا يدي حول عنقك، وعنق كل جندي مثلك . . لا لأنك جندي مشوّه أحمق، بل لأنك جعلتني أعرف الكراهية! وجعلتني أكرهك وأنتَ على حالك هذه، بل دفعتني إلى أن أفكر في القتل، أعني قتلك أنت . . حتى أوقف القتل، على هذه الأرض .

. . كم أنت مشوّه أيها الجندي!، كم أنتَ بعيد عنا . . !

*

ثمة قصّة وقعت وقت العدد، كادت تحصد ألف قتيل منّا . كُنّا نجلس والضابط الإسرائيلي ينادي على أرقامنا، وفي تلك اللحظات اضطر أحد المعتقلين، على ما يبدو، لينفّس بعض غازات بطنه . . فخرج الصوت وتضاحك بعض المعتقلين على هذا «الصوت» الذي جاء في غير أوانه . . لقد كان صعباً على «أحمد الحزين» و«علي الرجوب» و«الفطافطة» ألاّ يضحكوا ، رغم أنهم محسوبون من قيادة المعتقل ورجالاته الأشداء، فما كان من الجنود إلاّ أن ابتعدوا عدة أمتار، وسحبوا أقسام رشاشاتهم، وأعطى الضابط الأمر لهم بإطلاق الرصاص . . لولا أن شاويش القسم الشجاع منير العبوشي اعترض بجسمه البنادق، وسارع بلغته العبرية إلى شرح الموقف للضابط . . حتى هدّأ روعه!! فعادوا بعد ساعة، وأعادوا «العدد» وعاقبونا بالدخان والراديو!

– مَنْ هو شاويش القسم، وما هو عقاب الراديو والدخان هذا؟–

شاويش القسم هو أحد المعتقلين الفلسطينيين، ينتخبه المعتقلون ليكون حلقة الوصل بينهم وبين إدارة السجن، على أن يكون هذا الشاويش معروفاً بوطنيته وصلابته وإتقانه العبرية، وغالباً ما يكون «خرّيجاً» من أحد السجون الإسرائيلية .

أما عقاب الدخان والراديو، فإن إدارة السجن توزّع على كل معتقل خمس سجائر يومياً من نوع «خنتريش»؛ وهو دخان سيء ومن دون فلتر ويُسمّى «أُسكت»، حيث تقطع ادارة السجن الدخان عن المعتقلين، حسب مزاجها، يوماً أو أكثر . أما الراديو، فإن إدارة السجن التي وضعت مكبرات صوت نشرتها على كل الأقسام، وعلّقتها على أعمدة الكهرباء، فإنها «تشنّف» آذاننا بنشرة أخبار من «صوت اسرائيل»

صباحاً، وأخرى مساءً، وأحياناً تُسْمعنا أغنية أم كلثوم عصراً! وفي إحد الأيام، كان صوت أم كلثوم يسبح مع غروب الصحراء وهي تهدهد قصيدة «سلوا قلبي»، ولما أتت على قول أحمد شوقي «وما نيل المطالب بالتمنّي» قطعت إدارة السجن الأغنية، وعاقبت أم كلثوم على أغنيتها تلك، فلم نعد نسمعها.

وعند الساعة الرابعة، تعود لجنة النشاطات إلى الحياة، حيث تفتح ورشة نقاش في كل خيمة، ويتم فرز أحد المتحدثين، لمناقشة الحضور في موضوعة معينة، أو إلقاء محاضرة، حسب تخصصه واهتمامه . . وهكذا يدور المتحدثون، كل يوم في خيمة، ويتم اقتراح ندوات ومحاضرات جديدة . . وتظل الندوات كخليّة النحل، حتى الساعة السادسة موعد طعام العشاء . وطعام العشاء هو ذاته طعام الإفطار! وبعد ساعتين، أي عند الثامنة، يدخل الجنود ومدافع الغاز، ليتمّموا «العدد» الثالث! ثم يقول الضابط لشاويش القسم الجُملة نفسها: عند العاشرة يتم إغلاق الخيمات . . وعَ النوم! وما بدّي صوت . . مفهوم!!

وقبل العاشرة بقليل، يكون المعتقلون قد اصطفوا في شبه طابور أمام ماسورة الماء، يحملون فراشي أسنانهم، و«البشاكير» على أكتافهم، ويذهبون إلى بحر الحمّامات الطافح المقرف، ليفرغوا ما حملته المثاني . أما إذا ازدحم جسم أحد المعتقلين بالماء، وأراد أن يذهب إلى الحمّام، لقضاء حاجته بعد العاشرة، فعليه أن يخرج من الخيمة بصحبة شاويش القسم، الذي يضطر لاصطحابه . . وانتظاره أمام الحمّام . . حتى يقضي شأنه! وكثيراً ما يقضي الشاويش هذا، ليلته في هذه المشاوير الآسنة . لهذا تقوم لجنة الصندوق، بصرف ثلاث سجائر إضافية للشاويش،

تقديراً لجهوده . ولجنة الصندوق هذه، مسؤولة عن تسلم السجائر والصابون، وشفرات الحلاقة (12 شفرة شهرياً لكل قسم)، ما دفع أكثر من تسعين في المئة من المعتقلين إلى إطلاق شعر ذقونهم! وتقوم هذه اللجنة بتوزيع التموين بالتساوي الشديد على الجميع، ودون تمييز!

المعتقلون، عادة، وبعد أن يتم إسدال أذيال الخيمة، عند العاشرة ليلاً، يقوم بعضهم برفع أطرافها، حتى يدخل ضوء أعمدة الكهرباء، قليلاً . . ليواصلوا القراءة . . وللقراءة في السجن طعم آخر مختلف، فهنا لا تتم القراءة لزيادة المعرفة، ولكن، باعتبارها تحدياً من نوع آخر، نوعاً من إثبات الذات والانشغال بأمر «علوي»« لا يستطيع السجّان منعه عنّا . للقراءة في السجن طعم تطهّري ونضالي، ولهذا، فإن ما نقرأه في السجن لا ننساه عادة .

وساق الله على تلك الليالي التي كان «بُرشي» أو سريري إلى جانب سرير الصديق الشاعر وسيم الكردي الذي جعلني وإياه نحفظ العهدين القديم والجديد (التوراة والإنجيل)، وروايات نجيب محفوظ وإحسان عبد القدوس، والطاهر وطّار، وجان بول سارتر، ومنشورات «دار التقدم» السوفييتية، من روايات وكتب فكرية وتنظيرات ماركسية . . .

أما باقي المعتقلين، فكانوا يحلمون بيقظتهم . . ويخرجون بأرواحهم إلى آفاق بعيدة، يلتقون أزواجهم وأبناءهم وأحبابهم . . ويحلمون . . ويحلمون . .

. . . إنّ هذا الرَملَ يكذبُ
لا أُصَدِّقُ غَير هذا الشَّهَدِ

في عَيني هَزار
وجُلّنار خُدُودها
ومياه ضَحكتهَا إذا فاضَت عليَّ
وطَوَّقَتْني بالمَراجيح البَعيدة والذراعِ
وقَبَّلتني كالحمامة كَي أقولَ :
حَبيبتي الأحلى هَزارُ
ومُهجَتي، رُوحي . .
واسْكُتُ كيْ تُجيبَ بصَوتها القُزَحيِّ . .
- تضحكُ، تُشرقُ العَينان ،
تَنْظُرُ في عُيوني كي أُقَبِّلَهاَ -
أَقولُ : حبيبتي ؟!
وتردُّ في فَرح : أنا، وتضُمني . .
ويكادُ قلبي أَنْ يطيرَ ،
ويخلعَ القَفصَ المنيعَ
لكي يُسَربلها بحُبِّي أو بخَوفي
آه يا روحي الصَّغيرة، لَا تنامي
داَعبي شَعري بكَفِّك ،
واسألِيني باندهاشَ
كَيفَ جاءتْ أُختُكَ الصُّغرى ،
وقولي ما حَفظت مَنَ الأَغاني
والأناشيد القَصيرَة ،
رتِّلي الآياَتِ كالطيرِ السَّعيدِ ،

أو اطلبي بَعضَ السكاكرِ والعَرائسِ
والعبي مَعها ،
ونُطِّي في زَوايا البَيْت
وابكي، كسِّري بَعضَ الأَواني
خَربشي المَهْدَ الرَّتيبَ
ومزِّقي الصُّوَر القَديمَةَ
وانعفي الحَلوى وأَوراقَ الزُّهورِ
على السرير
أَو ادلحي كأسَ الحليبِ على الفراشِ
ولا تنامي .
إنَّ وجْهَك يَغسلُ القلْبَ المُعذَّبَ بالضياء
وإنني أنسى - إذا حَضَرتْ عُيونُكِ - كلَّ أَحزاني
- وحزني مثْلُ غاباتِ الشتاءِ -
فلا تنامي يَا ملاكي
ثُمَ أَسأَلُ :
هَل تنامُ حبيبتي
أَم أَنَّ عينيها تَلوحُ؟
فَلا تُخبِّرُني النجومُ
عَنِ السُّؤالِ أوِ الجوابْ .

*

ثمة بئر عميقة، لا يملك رؤيةَ ما فيها إلاّ علاّم الغيوب وأنت! وما فيها كثير كثير! وهو ما تحاول إخفاءه أو إنكاره، بل تسعى لنسيانه . .

– لكنه خربشات المراهقة وهوس الشباب! فلماذا الخجل؟ بل ما الذي نبّهك لتلك البئر التي دفنتَ فيها كل عيوبك وفلتات جنونك؟

يا للفضيحة والعار، لو انكشف المستور! يا ويلك . . أما كان بإمكانك أن تكون أكثر عفّة ومعقولية!؟ وما أدراك أنّك لن تفضح نفسك، كما فضح ذلك الشاب نفسه، وقال كل أسراره وهو نائم! كأنه كان تحت تأثير تنويم مغناطيسي، في غرفة طبيب، وعلى سريره الإكلينيكي؟

– لكنني لا أتحدث وأنا نائم؟

ومَنْ أدراك؟ ربما تتحدث هنا في السجن، ويكون البعض مستيقظاً، وسيسمع كل خطاياك وزلاّتك . .

– إذاً، لن أنام!

لكنك ستنام، فالنعاس مثل الموت أو المرض، لا يستأذن، ولا يرعوي، ولا يخضع لتعليمات الملوك، أو فرمانات السلاطين . . إننا بشر . . إننا بشر . .

– لأننا بشر، سأنام إذاً، فما فعلته بشري تماماً . . وليسمعوا ما لم أقله، وما سأقوله . .

تنام . . وفي الصباح، تنظر وجوه زملائك . . فلا ترى شيئاً جديداً، فتسري الطمأنينة إلى نفسك . . وتتأكد أنك لم تحلم بصوت مسموع . . ولم تتكلم! الحمد لله . .

*

الليل في «كتسيعوت» محيط من الثلج غير الملموس، لكن العظام تتخشب من مساميره التي تصطك بالنخاع الشوكي، وخناجره القاسية التي تعرّي العظام من كل دفء . أما النهار فهو هواء مليء بالذباب والبعوض الوقح، ولشدّة حرّه وقيظه تكاد أمعاؤك تخرج من بين شفتيك! وربما لن يسعفك ماء الثلاجة!

- هل ثمة ثلاجة؟

ثلاجة المعتقلين هي برميل بلاستيكي، دفنه المعتقلون حتى رقبته في الأرض، ولفّوا ما تبقى منه بقطعة بطانية، وأغرقوا محيطه بالماء، وغطوه بقطعة قماش نظيفة، غالباً ما تكون قميصاً برتقالياً كئيباً .

أما الرياضة الفُضلى، فهي «الكسدرة»، «ويا عيني» على المشي السريع، حيث يذرع معتقلان أو ثلاثة ساحة القسم جيئة وذهاباً، مدة ساعتين أو أكثر، خصوصاً بعد «العدد» الثالث وحتى إغلاق الخيمات . . أما باقي المعتقلين فيتحلّقون في جلسات متناثرة هنا وهناك، يتحدثون، يتناقشون، يضحكون، يُغنّون، يسهمون في لا شيء، وبعضهم يعمل نحّاتاً، حيث يجمع بعض الحجارة الصغيرة، التي يقترب شكلها من الرخام، ويبدأون بشحذه مع حجر آخر، مستعينين بالماء، أو بمسمار تمّ تهريبه . . ليتشكل بين يديه تمثالاً أو أيقونة أو حبّات سبحة، أو خاتماً أو تعليقة عقد . . أو شكل حرف . . وما أكثر ما نحت المعتقلون!!

أما وسيم الكردي وأنا، فكُنّا، غالباً، ما نادي على ذي الصوت الجميل، الرجل الفكاهي خفيف الظل إبراهيم رمضان، وعلى الأصدقاء طلال دويكات، وأبي عاصف البرغوثي، وأبي محمود السلوادي، وعلي دخل الله، والصيدلاني أحمد عديلة . . ونشكّل نجمة كنعانية

تضجّ بالغناء والشعرِ والقفشات والحوارات . . والحنين . . أو مناقشة أمر ما!

وكثيراً ما كانت تتسع الجلسة لتشمل عدداً رائعاً من الأحبّة، أذكر منهم الرجل الطيّب محمد خالد الفقيه، وعمر أبا عبيد «أبا بيسان» الحنون الرقيق، وكامل جبيل، وسمير الشاويش، وبدران جابر، وجبريل البكري، وأبو صبحة والحوراني، والحزين، وعلي الرجوب، ولؤي عبده، وجمال الديك وأبا بشار!

- مَنْ أبو بشار هذا؟

أبو بشار رجل تجرّأت عليه السنوات، وبلغ الستين، اعتقل تسع سنوات في معتقل الجفر الصحراوي، وظلّ شيوعياً صلباً، يتقن الثبات والدماثة والابتسامة الكبيرة . أما زهران أبو قبيطة فكان غالباً ما يشاركنا فكاهتنا دون أن يتخلّى عن جديته ورصانته العميقة .

وكثيراً ما يمر بنا أبو دلال ضاحكاً مازحاً . . وأبو دلال هذا أشجع مَنْ رأيت وسمعت! رجل جسور، أعتقد أن الموت سيتردد كثيراً قبل أن يقترب منه . . لكن أبا دلال (كامل الأفغاني) شديد التواضع، وهو كتلة من الطيبة والرقة والإيثار .

لقد كانت نجمتنا الكنعانية مصدر جذب طيّب للعديد من المعتقلين الراسخين في عوالم السجن والنضال، حتى أن رجلاً مثل رشيد منصور، والمعروف بتبتُّله وتديّنه، وحرصه على أداء صلاة الضحى، والصيام يومي الخميس والاثنين . . كان يحب جلستنا، ونُسعد بشَهْد لسانه وطلّته المضيئة . أما زياد هبّ الريح الذي يخيفك حضوره المجرد، فسرعان ما تكتشف الرقّة والرجولة والمرونة خلف هذه الصلابة الظاهرة .

أما عصام أبو بكر فإنه يحمل ذاك اللمعان الذي كان يميز الشهيد القائد أبا علي إياد، حيث إن «عصام» ينتمي إلى عشيرة شريم التي أنبتت أبا علي إياد، ويحرص عصام، على ما يبدو، على أن يظل محافظاً على هذا الخيط الذهبي المهيب الذي يشعّ من جبهته الناضجة الصلبة.

أمّا د. ثابت الثابت، وأبو الطيب جرادات، فإنهما «يزعلان» إذا اتسعت الجلسة ولم يكونا حاضرين، لكن غيابهما كان محموداً، لأن د. ثابت كان يلازم المرضى حتى يبرأوا، وعندما يتعب يُسلّم المهمة للدكتور سعيد الطريفي الذي كان يعتبر نفسه مسؤولاً عن صحة المعتقلين، في حين يكون أبو الطيب يدور من خيمة إلى أخرى مع عبد الفتاح أبي الذهب وأبي صالح يتحسسون أحوال السجناء، معتبرين أنفسهم آباء لكل الشبّان الذين وجدوا أنفسهم، فجأة، في حمأة هذي الصحراء.

أمّا نايف سويطات، فإنه يبقى بكامل تماسكه وجدّه المتواصلين يعمل ليل نهار، في المطبخ، والتنظيم، وترتيب الأوضاع، والبسمة البريئة لا تفارق أسنانه الواضحة.

أين أنتم يا كلكم الآن؟ هل تحتاجون لـ «كتسيعوت» جديد حتى تلتقوا ثانية؟ على أشغالكم، في هذه الدنيا، اللعنة..

وإبراهيم رمضان، مع كل هذا، لا يكفّ عن الغناء، بمصاحبة الصديق الشجاع فتحي جرادات والحاج نادي، مختار «سعير» المتوّج، اللذين يُشكّلان كورالاً، يزيد نشازهما في الغناء، في تواصل ضحكنا.. الذي غالباً ما ينتهي بصمت عميق!

وهل تذكر باسم يا إبراهيم!؟

ذلك الشاب «المشخّصاتي» الذي كان يقلّد أشهر ممثلي السينما المصرية، خصوصاً توفيق الدقن؛ بصوته الأجش، وسخريته النهارية المحمولة على المفارقة، واللعب على ملامح وجهه وتنغيم صوته . .

كان باسم شديد الحزن، لكنه يفتح ستارة مسرحه وسط الخيمة، كُلّما طاب وحي الموقف . كان يبدأ بتقليد محمود المليجي، ويُغنّي كما يفعل فريد الأطرش، بكاريكاتورية صوتيّة مبالغ فيها، ويتقّمص عادل إمام واسماعيل ياسين وغيرهم . . ويُنهي عرضه بتوفيق الدقن . حتى نسي المعتقلون اسم باسم الحقيقي، وصاروا ينادونه بـ توفيق الدقن .

لقد خشينا، كثيراً، من الموت ضحكاً، عندما كان ينفجر باسم العنبتي، وهو يقدم لنا أفلامه المجّانية، كلما كانت المناسبة مواتية، والتي أحياناً، يجعل أحد المعتقلين المسؤولين بطلاً لواحد منها، فيُسقط على لسانه وحركاته شهواتنا ورغباتنا . . . وأحلامنا المكّبوتة .

أين العَنبتي؟

إنني أفتقد، جداً، توفيق الدقن، يا إبراهيم .

بل، أين أنت الآن يا إبراهيم؟ إنّ صوتك ما زال يُجَنّح في فضائي كلما ذهبتُ وحدي إلى وحدي! وكيف أحوالك يا أحمد عديلة، يا مَنْ كنت تغسل الملابس الداخلية للمرضى وتطعمهم بيديك أنتَ وجمال الديك كأنهم أبناؤكم القاصرون؟

وهل تذكر يا ابراهيم ليلة نبهان خريشة المزدوجة؟

كان نبهان خريشة شاويشاً لقسم (4)، عندما لم يستطع «بكر المبسوط» الجلوس ساعة العدد على «مؤخرته»! فظل الضابط والجنود واقفين على باب القسم، ولمّا استفسروا عن «رفض» هذا المعتقل الجلوس . . لم

يتمكن نبهان من أن يشرح للضابط مأساة «الباسور» التي داهمت بكر هذا، ومنعه النزيف من الجلوس . . لكن الضابط لم يفهم على نبهان لضعف لغته العبرية . . وأخيراً، قال نبهان للضابط إن لديه مشكلة في قفاه . . ولّما ضحك الضابط . . كان الدم قد غطى أرضية الساحة . وسُمح لبكر المبسوط أن يقف ساعة العدد والدم يقطر منه . . بعدها أمضى الأطباء المعتقلون ساعة كاملة، وهم يعبثون بـ «قاعدة» بكر المبسوط الذي آلمه الباسور حتى الصراخ .

وللتسرية عن بكر أقام المعتقلون حفلة على شرف باسوره . . فسمع الضابط الغناء! فنادى الشاويش نبهان خريشة مستفسراً منه عن سبب الغناء الممنوع . . . فقال له نبهان : إن المعتقلين يحتفلون بعيد ميلاد أبي هريرة !

- مَنْ أبو هريرة هذا يا نبهان؟

شرح نبهان للضابط مَنْ هو أبو هريرة . . ومضى، وبعد نصف ساعة ارتفع صوت الغناء . . فهرع الضابط يلوم نبهان ويحذّره، فقال له نبهان : إنهم يحتفلون بعيد طهور أبي ذرّ الغفاري!

- مَنْ أبو ذرّ هذا يا نبهان؟

حاول نبهان أن يشرح الأمر للضابط، لكن أغنية «غلاّبة يا فتح» فضحت نبهان . وبان الأمر . . وسمع الضابط كلمة «فتح» فأخذ نبهان إلى الزنزانة مصحوباً بتهمتين : الأولى : الضحك على الإدارة بحجة مشكلة «باسور» بكر، والثانية : الاحتفال بأعياد ميلاد رجالات «فتح»، وهما أبو هريرة وأبو ذرّ الغفاري!

ذهبت إلى عيادة بكر في خيمته، فوجدته مبطوحاً على بطنه،

يئنّ من الألم، ويضحك من التعليقات التي يسمعها من الاصدقاء: (سلامة قفاك يا بكر) (إن شاء الله قفا «إيتسك» ولا قفاك) - وإيتسك ضابط أمن طويل القامة، أنيق، يحمل عصا الجنرالات دائماً، يضع نظارته الشمسية ليل نهار، لا يبتسم، كأنه مصنوع من الشمع.. لكنه لا يرحم! وهو نموذج للرجل الأبيض الدموي المُهلك -.

- كيف وضعك يا بكر؟ وبكر بلدياتي، كلانا من قلقيلية.. يهمس لي بكر بأن «أبا الهزاع» و«أبا علي شريم» وبقية شباب البلد معتقلون.. ووصلوا اليوم إلى القسم الثاني!

أبو الهزاع؟

أحمد هزاع شريم، أمضى عشرين عاماً، غير منقوصات، في سجون الاحتلال، امتدت من شتاء 1968 حتى شتاء 1988، وكان إفراجه في ذروة الانتفاضة، وبعد عشرين عاماً، هي السنوات الطويلة المليئة بالعذاب والفجائع، خرج أبو الهزّاع ليجدد نضاله ونشاطه الوطني فاعتقلته اسرائيل.. واحتمل عتاب خطيبته التي عليها أن تنتظره أكثر.. كأن عشرين عاماً لم تكن كافية، للاستعداد وإتمام الزواج؟

كانت كافية يا أحمد تلك السنوات، ولم يكن ليعتب عليك أحد، لو استرحت قليلاً، وتزوّجت لترى ابنك قبل أن تخونك الأيام تماماً!

أمّا وريث سيدنا أيوب في القرن العشرين، وأعني أبا علي شريم فقد أمضى ثمانية عشر عاماً في سجون الاحتلال، وها هو يعود إلى السجن صابراً راسخاً، كأنه جبل صلد لا تهزه القيود، ولا تخيفه الزنازين والجنود! فكيف لنا ألاّ نصبر ونقاوم ونغنّي.. ونحن في حضرة هذه الآلاف المؤلفة من مخضرمي النضال والكفاح والصبر الواعي المطمئن!

وكيف لي ألاّ أُصدِّق كلَ أحبابي
بأنصار البطولة
والرجالُ هنا بأنصار البطولة
لم تساوم
بل تقاوم
أو تقاوم ذُلّها
أو جوعَها
وزوابعَ الصحراء
والرملَ المعبّأ بالذئاب!

*

اشتدّ الألم على بكر، حتى اضطررنا إلى أن نبقى حوله طيلة الليل، ولا أمل في نقله إلى أي مشفى، لأن العلاج المُتاح في السجن هو إعطاء المريض حبّة «أكامول» أو «اسبرين» . . وفي أقصى الحالات يتم إعطاء المريض شريطاً من كبسولات المضاد الحيوي «الأنتي بيوتيك». لكننا، وبعد مراجعة الطبيبين ثابت الثابت وسعيد الطريفي، وجدنا ضالتنا لعلاج بكر بوساطة «طشت» ماء ساخن! فنادينا على «المختار» مسؤول المطبخ والصيانة في الأقسام الأخ المناضل قدورة موسى، ابن جنين، الذي لا يهدأ ولا ينام، وهو يدور من قسم إلى آخر يتفقد الماء والنظافة وكميات الطعام وأمور الصندوق، وما يحتويه من صابون ودخان . . والذي كان يُهَرِّب، بطريقته، راديو صغيراً، لكل قسم،

وكميات إضافية من الدخان والطعام . . وبالطبع كان قدورة ضابط الارتباط السريّ بين كل أقسام المعتقل!
- أحضر لنا ماءً ساخناً من المطبخ يا أبا موسى! فيسارع قدورة موسى بضحكته الطازجة حاملاً «طشت» ماء يغلي . . ويترك الباقي للطبيبين ثابت وسعيد . . وبالمناسبة فهما طبيبا أسنان!

*

بعد ثلاث عشرة سنة، تقريباً، وعند انتهائي من كتابة هذه الشهادة / الرحلة الشاقة لـ «أنصار 3»، فُجعنا بخبر استشهاد د. ثابت ثابت صبيحة يوم 31/ 12/ 2000 أمام بيته في مدينة طولكرم. وعليه، لا بُدّ من الوقوف إجلالاً أمام هذا الشهيد البطل الذي سقط وهو يواجه وباء الاحتلال، بكل ما أوتي من دم وشرف وبسالة .
«يحق لعيني الفهد الخضراوين اللتين انطفأتا باغتيال د. ثابت الثابت، أن نَصبغ أسناننا بالسواد، حزناً ومرارةً، وأن نهيل الرماد والتراب على رؤوسنا، وأن ينتحب القلب، ويجوح الصدر . . . حتى لا يظل دمع في الرأس .
مَنْ يُصدّق أن ثابت مات؟!
-أستغفر الله العظيم-
هل رأيتم رجلاً من ندى وريحان، ووجهاً من فرح الأطفال، وضحكة من رذاذ العيد؟
ذاك ثابت الثابت .

وهل عانقتم نهراً في جسد يضفضف بالنور والذهب؟ وهل أحببتم صلاةَ الشجر، أو لقاءَ البعيد العائد؟ وهل حملتم زهرةَ الحليب إلى الأمهات، بأناقة وخشوع؟

لقد كان ثابتُ في العناق المجيد، حتى سقط!

ثابت (أبو أحمد) مات. إذاً لتدقّ الأجراس ألف ألف عام، ولتُكَبّر المآذن ألف ألف مثلها، وليكتبوا على مداخل المدن والبلاد: إن ثابت مات! فلتُرضع السروةُ ابنتها لبناً من دمعها عليه، ولتُطلق السباعُ قشعريرةَ الوديان بعويلها، لأن أبا الجبال مات، وأبا الينابيعَ مات، وأبا الطيور البريئة مات.

مَنْ رأى منكم أبا أحمد في السجن؟

كثيرون، بالتأكيد!

كان تاج شمعة بحجم الإنسان، يحبّ الشعر الواضح وأطفال السخرية، ويمتعض من الالتباس والغمغمة. قليل الكلام، دائم الابتسام، لم يلق بالاً لقمصان السجن أو لزمهرير الهزيع. كان يفرك كفّيه، ويعاود الاطمئنان على المرضى، يجسّ نبضهم، ويعصر خرقة الماء، ويبسطها على جبين مَنْ وقع في حمّى تردّد المناخ.

حُمْرةُ وجهه زائدة، كأنه مرهون لغضب أبدي، أو كأنه من سلالة «الزهراء» الطاهرة.

على مثله يبكي الرجال، وعند موته يموت الصبر، ويصبح الحزن وحشاً يفتتّ الكبد ويحرق القلب.

مَنْ رأى أبا أحمد؟

كان زهر الليمون الشتوي يسّاقط من أكمامه، ويطلّ النرجس من عنقه

المشرّب بالمغيب، كانت تَحفُّهُ عرائسُ الغموض، وتحمل خطوته إلى درج الصباح، فيظلّ واثقاً رائقاً يضوّع الطريق بالأريج.
كان في المعتقل، يرقب رقعة الشطرنج، حتى إذا فرغ اللاعبان نصح الغالب والمغلوب، وبيّن لهما أخطاءهما . . . وعندما يطلبه أحد للمبارزة، كان يقول له: إن بيادقي من لحم ودم، وأنا الحصان والقلعة والملك!
كيف سمحتَ لهم، أيّها الملك، أن يُقلّبوا جثمانك أمام كاميرات الصحافة، ليظهروا للعالَم مكمن إصابتك ومداها . . . ولم تبعدهم؟!
كنتَ مستسلماً، ذراعاك على بطنك مقيّدتان، كنتَ حيادياً، ثم دفعوا بك إلى الصندوق المُعتم البارد!
انتظرتُ أن تدفعهم بعزيمة يديك، وأن تنهض بكامل نبيذك وعسلك، وأن تذهب إلى ملابسك، فترتديها من جديد، وتعود إلى إصلاح السيارة من ثقوب الرصاص الغليظ.
لماذا لم تفعلها وتنهض يا ثابت . . . لماذا؟
هل ذهبت إلى الجنّة!؟
حسناً، طولكرم جنّة أيضاً، وأقسم بالله، لو أنكَ سمعتَ بكاء أبنائك وأهلك ونشيج صراخهم، لكشفتَ غطاء النعش، ونزلت منه . . . وذهبت إليهم، تعتذر لهم عن موتك!
لكنك لم ولن تعتذر، كأنك تريد بموتك أن تدفن قرن المظلمة والاستلاب، وتبعث بدمك الجُلّنار، ذكرى العاصفة المتجددة، حتى الأسوار والنشيد الأخير.
وهل نحن أحياء لنقول إنك ميت يا ثابت؟ وكيف نكون أحياء وصخرة

المعراج محاطة بسنابك خيل الآخرين، ولم يرتفع حزننا الغولي فوق قامة الفقاعة، أو على ضباع أسبارطة التي تلعق دماءنا بأنيابها وخراطيم حديدها المُهلك.

وهل سنواصل السلام بعد قليل؟ لتنسرب الرغوة الفاسدة إلى رئتي القرى والصلوات، ونطوي صفحة وجهك الأرجوان؟

أرى حبّةً من كهرمان صدرك تسقط في الطريق . . وبعد قليل، ستنفجر الأشجار، وينفضُ فتى العاصفة غُصْنَ البرق، لتنثال على الدنيا أنوار المجد والخلاص! عندها، ربما، سنبكي رجلاً، كان ثابتاً على عهد التراب، وكان اسمه العالي المسجّى: ثابت ثابت!».

*

وإذا غاب قدورة أبو موسى، أو كان مشغولاً في مطبخ المعتقل، ولا بُدّ من بعث رسالة من قسم إلى آخر، فثمة طريقة «الحمام الزاجل» أو «الصحون الطائرة» حيث يتم لفّ الرسالة وربطها بحجر أو بقطع ملبّدة من لبّ الخبز . . ورميها بأقصى قوة إلى القسم الآخر . . ودائماً هناك شخص مُكلّف بالتقاط الرسالة وتسليمها للجنة القسم الوطنية . . !

إذ إن لكل قسم «لجنة وطنية» أو «لجنة نضالية» تتكون من ممثل لكل فصيل (فتح، الجبهة الشعبية، الجبهة الديمقراطية، الحزب الشيوعي الذي أصبح حزب الشعب) وهي أعلى لجنة مسؤولة عن كل شيء داخل القسم، ولها مرجعية تزوّدها بتعليمات دورية، غالباً ما تكون أُسبوعية. والمرجعية هي «اللجنة النضالية العليا» المكونة من الفصائل الأربعة

المذكورة، ويكون ممثل حركة فتح منسقاً للجنة العليا، ولجنة القسم، لأن أكثر من نصف المعتقلين ينتمون، أو أنصار، لحركة فتح .

ويقوم كل فصيل بتسمية أو فرز ممثليه للّجان الوطنية في الأقسام، وكذلك ممثله في اللجنة العليا .

وتكون لكل لجنة نضالية في كل قسم لجان فرعية تشرف على كل صغيرة وكبيرة، تبدأ من الطعام وتوزيعه، مروراً بالنشاطات والفعاليات، وانتهاءً بإصدار البيانات والتعليمات المحلية، والضبط والرقابة الأمنية .

ثم إنّ لكل فصيل لجانه الخاصة، وغالباً ما تتركز حول التنظيم والأمن . عدا أن لكل فصيل لجنته المركزية على مستوى كل المعتقل، ولجنة تنظيمية على مستوى القسم، ويتم انتخاب هذه اللجان التنظيمية بطريقة الاقتراع السرّي والمباشر، وبشرط منع الترشيح، بمعنى أن على كل مَنْ ينتمي لحركة «فتح»، مثلاً، أن ينتقي أو يرشّح سبعة أشخاص ليكونوا لجنة مركزية . . ومَنْ يُجمع عليهم المعتقلون الفتحاويون تتم تسميتهم كلجنة مركزية للحركة في المعتقل، ويتم تكليف كل عضو لجنة مركزية ليكون مسؤولاً عن قطاع من القطاعات التالية: الأمن، الثقافة، التنظيم والتعبئة والتوجيه، اللجنة العليا، النشاطات، الاتصال والاعلام، التموين أو الصندوق . . الخ

أما الاخوة في «الاتجاه الإسلامي» فكانوا خليطاً من عدة مجموعات، هي الاخوان المسلمون، الجهاد الإسلامي، حزب التحرير . . ولم تكن «حماس» قد اشتدّ عودها بعد، ولم ينتظم أعضاؤها في هرميّة تنظيمية لها حضورها وفاعليتها، رغم أن الأشقاء في الاتجاه الاسلامي، كانوا يتميزون بالشجاعة والالتزام والانضباط العالي،

وساهموا مساهمة طيّبة في تمتين جبهة المعتقلين في صراعهم مع إدارة المعتقل .

*

كأني رأيته وهو يهبط من البدر المكتمل الموشّح ، بثيابه البيضاء ، الموشّاة ببقع الأرجوان المقدّس ، وقدميه الناعمتين اللتين مرَّرت المجدلية ضفائرها عليهما !
كان شفيفاً ، عملاقاً ، كان شَعره مخضّلاً بالمياه ، يضفضف ويضيء . .
فتح ذراعيه ، كأنه ما زال مصلوباً ، فتنزل سحابتا أردانه حتى تلامسا الرمل . .
يا سيدي البهيّ المخذول بقُبلة الخيانة اللئيمة ! عُدْ إلى أبراج السماوات ، واهتف للعليّ المجيد ، الذي يرانا . . ليمسح عن وجهك دموع المعتقلين البسطاء ، واقرأ بشارتك النافذة ، في هذه البراري القاسية ؛ بأنك جئت لتلقي سيفاً ، في قلب الرمل . . لعلّ صغارنا يدخلون – الآن – باب العامود ، ويدلفون بأناشيدهم الصغيرة ، إلى طريق الآلام . . فلا يُصعّرون خدودهم ، بل يكسرون صليبهم ، ويرمون تيجان الشوك . . وينظرون إلى الأعالي ، التي تُسبّح لمجد أمواه القلوب ، التي تغسل الطريق من غبار الجنود . . الذاهبين ، وحدهم إلى الجلجلة . . ويعلو قُدّاس الحياة واليمام . . في كل الأزقة والأجراس . . والنداءات الخاشعة . .
يا ابن البتول ! لن يتمكّنوا منك ثانيةً ، فاذهب ، على مهل . . إلى غبش الخشوع والملائك الساهرين .

في صيـــف 1988، أعلمتنا إدارة السجـــن بزيـارة «وزير الدفاع الإسرائيلي اسحق رابين» للمعتقل!

ورابين هذا هو الذي أمر بتحطيم وتكسير أيدي وأطراف المنتفضين، فما العمل؟ هل نقابله؟ هل نتظاهر في الأقسام؟ ماذا نردد؟ هل نرشقه بالحجارة وقطع الصابون؟ هل يهجم عليه ثلاثة من حاملي شفرات الحلاقة، ويمزّقون وجهه؟

(لكن إدارة السجن جمعت شفرات الحلاقة قبل يومين، ومثلما تسلّم شاويش القسم 12 شفرة، عليه أن يسلّمها 12 شفرة . . . وإلاّ تقوم الدنيا ولا تقعد)

إذاً، ما العمل؟

أجمع المخضرمون وأعضاء اللجان الوطنية والفصائل، بعد طول نقاش وحوار . . . على تشكيل لجنة لمقابلته، وطرح مجموعة من القضايا عليه، وتم تشكيل اللجنة من: لؤي عبده، أبي الرامز، بدران جابر، موسى أبي صبحة، محمد الحوراني، أبي بشار، سامي الكيلاني، عز الدين العريان، نايف سويطات، جمال الديك، بلال الشخشير، ثابت الثابت، كامل جبيل، رضوان زيادة، وكنتُ معهم.

دخل رابين محاطاً بأكثر من ثلاثين جندياً مدجّجاً - من القوات الخاصة على ما يبدو، لاختلاف لباسهم والشعار على أكتافهم وطواقيهم- جلس في أول خيمة، في قسم 3، وسُمح للمعتقلين أن يقتربوا، دون أن ينبسوا ببنت شفة! وحاول رابين أن يبرر إجراءات وزارة الحرب التي يقودها بشراسة وساديّة ضد الأطفال والناس العُزّل. . والجميع صامت . . . وعندما انتهى هزّ رأسه، كأنه ينتظر سماع شيء ما . .

بدأ لؤي عبده الحديث باللغة العبرية، بثقة واتزان ووضوح، وافتتح حديثه الموجه إلى رابين بقوله: إن إجراءات الاحتلال هي إجراءات فاشية نازيّة، وإننا سنمضي قدماً في الانتفاضة حتى نتخلّص منكم (الاحتلال)، وإذا أردتم أن تتفاوضوا معنا، فإن لنا ممثلاً شرعياً وحيداً موجوداً في تونس، اذهبوا -إذا أردتم التفاوض- إليه في تونس، فهناك لنا رئيس اسمه ياسر عرفات، وأعتقد أنك يا سيّد رابين تعرفه جيداً . . . في «الكرامة» عرفه موشيه ديان، وفي بيروت عرفه بيغن وشارون. . . الخ.

واستيقظنا صبيحة اليوم التالي، فلم نجد لؤي عبده ولا بلال الشخشير ولا رضوان زيادة (الذي توفي بعد إبعاده بعامين في غربته . . بعمّان) . . . لقد تم إخراجهم من القسم منتصف الليل، ليكونوا خارج فلسطين، مُبْعدين . . مع آلاف المُبْعَدِين الآخرين!

هل أبعدوك؟
هل توّجوك القلب سرّاً
عندما جاءوا إليك
مع الغسق
وقيدوك . . ؟
لا تسرقوا منه العبق
قلبي تشقق واحترق .

*

ربما، كان لا بُدّ من الدم، حتى تكتمل التفاحة أو البرتقالة أو البيضة، وحتى يكفّ الجنود المدججون عن ركلنا وصفعنا، بسبب أو دون سبب! كان ذلك، عزّ ظهر يوم 16/ 8/ 1988، حيث كان الجنود يسحبون معتقلاً إلى الزنزانة، ولشدّة ضربه، غطى دمُه كاملَ وجهه . . ولّما كانت السياج لا تمنع الرؤية، احتجّ بعض المعتقلين بالصراخ: الله أكبر . . وما هي إلاّ ثانية أو أقل حتّى كانت «الله أكبر» تخرج من سبعة آلاف فم زلزلت الصحراء . . فيما ذهب المعتقلون يبحثون بين الرمل عن الحجارة والحصى، وحمل بعضهم قطع الصابون والأحذية . . وألقوا كل شيء على الجنود الذين فتحوا النار عشوائياً على كل الأقسام، بصورة هستيرية، وبدأ الجنود المنتشرون في طرقات الأقسام فتح فوهات مدافع الغاز . . . وظهر المسؤول الأول عن معسكر كتسيعوت «أنصار 3» «العقيد تسيمح» ورأى ما رأى، فتناول بندقية «الأم سكستين» من أحد الجنود، وصوّب نحو المعتقلين . . . وغطّت سماء المعتقل غيوم الغاز الخانق . . . فارتمى معظم المعتقلين أرضاً، يسعلون ويعطسون . . . وهدأ الرصاص . . . وبعد نصف ساعة، انجلى المشهد، فرأينا المدافع والدبابات الثقيلة، توجّه فوهاتها الكبيرة الغليظة باتجاه الأقسام . . . وأمر ضباط، لم نرهم من قبل، أن نحمل الجرحى ونضعهم أمام بوابات الأقسام، لنقلهم إلى المستشفى، ففعل المعتقلون، وحمل الجنود الجرحى والمصابين إلى مكان قيل لنا إنه عيادة السجن، وبعد ساعتين، نادى ضابط السجن على الأخ منير العبوشي الذي كان شاويش القسم، كما كان ممثلاً للمعتقلين، وعلى الأخوين عبد الله ياغي وسالم أبي صالح شاويشيّ القسمين اللذين استشهد فيهما اثنان من المعتقلين . . وأبلغوهم أن الشهيدين هما بسام السمودي وأسعد الشوّا .

أعلن المعتقلون الإضراب عن الطعام، حداداً واحتجاجاً. . وليستمر المعتقلون تسعة أيام دون طعام، حتى استجابت إدارة السجن إلى بعض مطالبهم، فكان أن أصبح نصف التفاحة تفاحة كاملة، ومُنعَ الجنود من ضرب السجين أمام زملائه، وتم تبديل «بُرش» البلاستيكَ بسرير خشبي يُسمى «مشتاح»؛ وهو ألواح خشبية متباعدة. . وتكسر الظهر، عند النوم!، وتمت زيادة كمية الطعام، وإدخال القهوة وجبة أسبوعية!!

اعصفْ فإني عاصفهْ
ودماءُ قلبي راعفهْ
وجموعنا في كتسيعوت الموت
هبّت واقفهْ
لا الموتُ يكسرنا
ولا رعبُ الدماء النازفهْ
. . . . .
. . . يا لعنةَ التاريخِ هذا قيدُك الهمجيُّ
أُلقيه بوجهك صخرةً
ولظىً على كَل الوجوه الزائفهْ
. . . . .
ولتحذروا
هذي الجموعُ، سيولُنا الغَضبى
تهدّرُ جارفه

اعصفْ فإني عاصفه
واعصف فإني عاصفهْ .

*

هل تنفست الصعداء لأن العناية الإلهية حرستك من الرصاص؟
آه أيها الجبان . . لقد انكشفتَ . . إنّك تخاف الموت!!
- لا . . ألم ترني، والرصاص المجنون يئزّ حولي، بقيت واقفاً، أو منحازاً لنقل بعض المرضى إلى داخل الخيام، حتى لا يموتوا خنقاً أو رصاصاً؟!

لكنك سعيد بأنك ما زلت حيّاً، بل إنك ستدّعي البطولة، وأن الموت لا يهمك . . ! على كل حال احمدْ ربّك، لأنك كنت مشغولاً ساعة زلزال الرصاص . . ولو فكرتَ لحظةً باحتمال موتك لسقطتَ ميتاً! ألم تسمع المثل القائل: إنّ مَنْ يخشى الذئب . . فإنه يراه . .

ستراه يا صديقي . . ستراه! انتظر . .

*

بعد شهر تقريباً، استطاع الفارس الشجاع، المناضل الشاعر توفيق زيّـــاد من زيارتنـــا في قلـــب «أنصار3»، كان وقته
ا عضواً في الكنيست (البرلمان الإسرائيلي)، جاء . . . وشدّ على أيدينا،

وسمع مطالبنا، وعلا صوت احتجاجه . . وودّعنا وهو يلوّح بقبضته، وهو يقول: سننتصر . . . سننتصر! وسمعنا صوتَ هذا النورس الأسمر، وهو يصرخ في وجه «تسيمح» القاتل . . .

وسمعناه، وكأنّا به يهتف بقصيدته «مليون شمس في دمي» التي يقول فيها:

سلبوني الماء، والزيتَ،
وملح الأرغفهْ
وشعاع الشمس، والبحر،
وطعم المعرفهْ
وحبيباً - منذ عشرين - مضى
أتمنى لحظةً أن أعطفَهْ
سلبوني كل شيءَ:
عتبة البيت، وزهرَ الشرفَهْ
سلبوني كل شيءٍ
غيرَ قلب،
وضمير،
وشَفَهْ!!
كبريائي، وأنا في قيدهم،
أعنف من كل جنون العجرفهْ
في دمي مليون شمس
تتحدّى الظُّلَمَ المختلفهْ
وأنا أقتحم السبعَ السموات

بحبي لكَ . .
يا شعبَ المآسي المُسرفَهْ
فأنا . . ابنكَ . . من صُلبكَ
قلباً،
وضميراً،
وشَفَهْ!!
يَدُنا ثابتةٌ . . ثابتةٌ
ويَدُ الظالمِ، مهما ثبتت،
مرتجفَهْ!!

بعده جاء عدد من أعضاء الكنيست العرب منهم: محمد ميعاري، وعبد الوهاب دراوشة، وأعضاء من حزب «راتس» اليساري، قبل أن يصبح اسمه «ميرتس». وبدأ المحامون زيارتنا، واستطعنا، لأوّل مرّة، بوساطة المحامين، أن نتخارج مع الأهل، ومع المدن المشتعلة التي يضيء نشيدُها ودمُها شمسَ الله ونجومَه!

وهنا، لا بُدّ من ذكر المحامي الإنسان محمد كيوان، ابن أم الفحم الذي كان جندياً مجهولاً في دفاعه المستميت عن المعتقلين، وتقديم ما أمكن لهم. . . رحمه الله! لقد استشهد وهو يحرث أرض أم الفحم لتظلّ عربية!

وهو الذي حمل قصيدة «ونحن سواء» التي كنتُ كتبتها للأخوات المعتقلات والأسيرات في سجن «نفي ترتسيا»:
أَكتبُ من نرجس القلبِ
آيةَ حُبّي الكبير اليكِ

وأُهدي اليك السلام ،
وأسأَلُ عن مُهرة قيَّدُوها ،
وعن غيم عينيك ، أسألُ ،
عن دمعة في المسَاءْ ،
ومن عندًنا في لهيب الصحارى ،
سبعةُ آلاَف واحة عشَق
تقدُّ اليك نشَيدَ النخيل ً،
وتُهدي اليك رحيقَ الحُداءْ ،
وترسلُ عبرَ رَداء الطيور ،
جراحات ناي المَحبينَ ،َ
عطرَ الصهيل ووجهَ السماء ،
وأسأَلُ : كيفَ تنامُ عصافيرُ حُزْنك ،
في الليل ،
كيف يغرّد فيكِ الهزارُ ،
نهاراً ،
وكيفَ تَشُقّينَ ثوبَ « العتابا » ،
على كربلاءْ ؟!
– وقلبي أحقُ بهذا السؤال –
فنحن نواجه رملَ المعسكر «بالآوف»
نكسرُ وحشَ الصحارى ،
بعُرْس انتفاضتنا ،
لا نكفّ عن الدَبكاتِ ،

ونغمرُ هذا المدى بالغناءْ . . .
يا أُختَ روحي التي ما نسيتُ
أراك بسجنك أحلى وأبهى ،
فلا تَستثيري حَنانَ اليمامِ ،
وراءَ الشبابيك ،
حتى يظلَّ هديلُ الشتاءْ ،
فقد حرّقتني دمعةُ عينكِ
لما تنزَّتْ ،
قبيلَ الدخول لمعنى القيود ،
وكنتُ أراك ابَتساماً ،
ليورقَ «أنصارُ» عُشباً وماءْ ،
ونحن بدون العوالم :
ندفنُ مَنْ مات منا ،
نُشيّع مَنْ راح للسجن
أَو للوقوف شموخاً عَلى النطعِ ،
أَو مَنْ تدلّى بأنشوطة الرعب ،
بزغرودة الإنتماءْ .
يا أُختَ روَحي . .
أَأَسأَلُ جوعَك كيف يشقّق فيك الجبال ،
وكيف البلابلُ في شفتيك تنادي البحار ،
وكيف الزنازينُ تصحو علَى الصرخات ،
ونحن سواء؟

أَأَسأَلُ، والسجنُ غازٌ يُفجّر قلبَ الهواءِ ،
ونحن سواء؟ ،
أَأَسأَل، والقيدُ يبدأُ من رسغ كفي ،
في «كتسيعوت» ،
ويمتد حتى يعانقَ كفيك
في عتمات سجون النسَاءْ؟
لا بأس !!
فالسجنُ سهمٌ يصيبُ المخابئَ ،
في القلبِ ،
يكشفُ سرَّ الزمان الثقيل ،
ويجعلُ ذكرى الطَفولة والعشق ،
أشهى العذابَ ،
ويكتبنا سورة للإباء . . . !
والسجنُ قبرٌ بكل العصور
وفي عصرنا روضة للصغار الذين ،
أتوا في زوايا الإناء . . .
فنحن – بدون السماوات والأرض –
نكبر بالموت ،
نولد في كل حرب وسجن
ونُطلق أطفالنا في براري الَنداءْ . . .
والسجنُ من عهد جان سليمان ،
حتى النبيّ الذي راودتهُ زليخةُ ،

حتى «نفي ترتسيا» أوجدوه ،
لحرق البساتين في الصدر ،
أَو لاحتواء العواصف والَأَنبياءْ ،
ولكننا قد جعلنا السجَونَ قلاعاً ،
تضجُّ شموساً ،
وسرجاً نطرّزه للعراءْ
شقيقةَ روحي .
إذا ما سأَلت ، فأنِّي ما زلتُ حيّاً ،
وكُلِّي شوقٌ لعينيْ هَزار ،
وكلّي وفاءْ .

*

المرّة الأولى التي سمحت فيها إدارة معتقل «كتسيعوت» للصليب الأحمر بزيارتنا، كانت في نهاية أيار 1988، حيث دخلت امرأة سويسرية وشاب فرنسي، كوفد من الصليب الأحمر ليسمعوا مطالبنا، ويطمئنوا على أحوالنا.

قابلهما الأخوة محمد الحوراني، وموسى أبو صبحة، وعدنان الضميري وجبريل البكري وأنا في إحدى خيمات قسم (1)، وحاولنا أن نشرح لهما كل شيء، وقدّمنا لهما قائمة مطالبنا المشروعة، التي تبدأ بتحسين شروط اعتقالنا، ومروراً بحقّنا في زيارة الأهل لنا وكذلك المحامون، وانتهاء بحقنا في توفير الصحف اليومية والكتب والقرطاسية . . الخ.

كانت الأقلام معدومة، وكذلك الأوراق! لكن الشاب الفرنسي ذاك، نسي عمداً قلمَه لنا، فيما تركت الفتاةُ السويسرية دفترَها الصغير. . ربما استشعرا المحيط المرعب الذي يلفّنا. . فتعاطفا معنا!

بعد شهر، أو أقل، جاءت سيّارة كبيرة محمّلة بالكتب والورق الأبيض والأقلام والمساطر. . مع وفد من الصليب الأحمر، وبدأوا – على مرأى من الجنود – يوزّعون على الأقسام هذه الحمولة التي رقصنا لها! وأخبرونا: بإمكانكم أن تكتبوا الرسائل الشهرية إلى أُسركم. . . رغم أن إدارة السجن ستراقب كل الرسائل قبل أن نوصلها إلى البريد، لتصل إلى أهاليكم!!

عندها، استطاع المعتقلون أن يقرأوا جيداً قصص وروايات غسان كنفاني، وعبد الرحمن منيف، وسميرة عزام، وحنا مينا، وإميل حبيبي، وأشعار محمود درويش، وسميح القاسم، وفدوى طوقان، وكمال ناصر. . وأن يحفظوا الكثير منها، وأن يناقشوا، لاحقاً، في الجلسات الثقافية مضامينها وصورها وأشكالها الفنية! وبدأوا يتعرّفون على الوجه الآخر للقائد صلاح خلف «أبو إياد» من خلال كتابه «فلسطيني بلا هوية».

*

المباح قليل، والمسكوت عنه لا يُحصى! فكيف ستشرح أوجاعك، أيها المتأجج بكيمياء الرغبة، ولمسة البركان المهيب؟ وكيف ستجوح والبكاء عيب في كتابنا المهترئ؟ وكيف لك أن تقذف كل الزجاج

المشروخ الذي يُدمي رئتيك؟ وهل تستطيع أن تمارس عادات الجنّ المخفيّ، أو الحصان الذي يشمّ ضفيرة الفرس تحت شمس اللوز، في البراري المفتوحة، للصهيل والنحل والفَراش الموعود بالنار؟

يتحلّقون حول بعضهم البعض . . فتأخذهم اللغة الجمعيّة إلى منابرها وإيقاعاتها الجاهزة . . ومع الشروق والمغيب، يتحلّلون من ربقة الكلام المُعلّب . . وينسلّون، بخفوت وتكتّم، إلى الحكايا المُحرّمة، والليالي العاصفة بالنبيذ والشهيق البعيد!

فهل يكتفون؟

إن الغَزَل، والمبالغةَ في عبادة غلالات الليل وبنات حواء، هو آلية تعويض! مثلما تشرح النكاتُ الساخرةُ حالةَ اللارضى، والاحتجاج السلبي، على ما يدور! . . ودائماً ثمة لغة أخرى، تجدها في قاع المدينة، أو على جدران المراحيض العامة والحيطان . وهنا في «أنصار 3»، لغة أخرى أيضاً، تهمس بفحيحها وخريرها، في كل الزوايا، ما يشير إلى أن هذه المجاميع هي مجتمع آخر، له مواصفات البلد . . وآه يا بلد!

*

وماذا عن الصحف أيها الصليب الطيّب؟!

بعد يومين بدأت إدارة السجن توزيع صحيفة لكل معتقل! والصحيفة هي «كولاّج» مكّون من أخبار مقصوصة من صحف عبرية وعربية وإنجليزية . . تم مونتاجها على أربع صفحات، وتصويرها عدة نسخ . . . وتوزيعها على المعتقلين!! وبالتأكيد، فإن الأخبار المُمنتجة

والمدبلجة، تتحدث كلّها بلسان إسرائيل وتطعن في خاصرتنا!
ولّما سأل شاويش القسم ضابط السجن عن جدوى هذه الصحيفة، التي لا يقرأها أحد قال الضابط: ألا يقرأها واحد من كل ألف، فقال الشاويش: ممكن . . . فقال الضابط: إذا استطعنا أن نؤثر كل يوم في سبعة معتقلين، فهذا يكفينا . .

*

ما الذي جاء بك إلى هذا الجحيم؟ أما كان بإمكانك أن تتوارى قليلاً عن عين النار؟ لماذا كنتَ مندفعاً لتكون ساتراً تحمي المدينة؟ هل أنتَ المسيح الذي سيفدي البلد . . وتبكي أُمّهُ؟! أم أنتَ حارس أحلام الأسوار والأغاني؟ كان بمقدورك أن تتشاغل بعملك وأكل عيشك! وكان سيتمّ ذلك بدعوى أن هاجسك الحرف وليس السيف!
بل إنك تخشى من أن يكون كل هذا الألم والصراخ والدم، عبثيّاً ومجانيّاً، فلماذا العذاب، إذاً؟
وغداً، ماذا ستفيد وتستفيد؟ بل ستخرج، إنْ خرجتَ حياً، إلى رتابة الفراغ والعادة المقيتة! وستكون، في أحسن الأحوال، واحداً من آلاف مؤلّفة . . ولن تتمايز عنهم . . فلماذا لم توفّر على نفسك، هذا الجنون والذلّ، والموت الساقط مع الشمس القاهرة أو النجم البارد؟!
- ماذا تقول يا رجل؟
هل سمعك أحدٌ غيرك؟ اُسكت! فأنتَ الآن رجل حقيقي، وتستطيع أن ترفع رأسك جيداً، وأنتَ تطأ الأرض كالنَمْر الواثق، ولا

بأس إنْ ارتفع صوتك في الجلسات، فأنتَ الآن معتقل!!

وسينقلب تاج الرمل هذا إلى هالة من الطمأنينة والرسوخ والمجد.

اعتدلْ في جلستك! واسمع ما يقوله الآخرون . . فلقد ذهبتَ بعيداً، وتركتهم حولك، كأنّ طيراً عظيماً قد حملك إلى سماوات الظلام، لكنك تعود الآن إلى دائرة الأصدقاء الساطعة . . فلا تنطفئ، وابدأ كلامك من نهايته . . عليك اللعنة!

*

بإمكانك الآن يا صديقي العزيز أن تكتب قصيدتك التي حفظتها عن ظهر قلب، بإمكانك يا عبد الناصر صالح! أيّها الشاعر المكافح، أن تكتب عن «أنصار 3»، ما يستحق من كـ ـلام غير هذا الكلام الفائض.

اُكتبْ يا صديقي تلك القصيدة التي نفذت إلى قلبي مثل سهم النور، وأشاعت القوة في روحي . . .

أعلنَ الفجر مخاضَهْ\
خرج المولود : شعب الانتفاضهْ\
خرج المارد من قمقمه\
صارخاً ملء الوجودَ\
أزفَ العهد الجديدْ\
ياَعدوَّ الشّمس والإنسانِ\
عُدْنا من جديدْ\
ورفعنا في جحيم الموت صرحاً للصُّمودْ .

وعشقنا الأرض ملء القلبِ ،
ملء الرُّوحِ
أشهرنا علىَ الباغي السلاحْ
فاستبيحوا الأرض
لا تنتظروا
وانصبوا الأسلاك من حول البطاحْ
قَدَرُ الإنسان أنْ يحيا
على نبضِ الجراحْ
قدر الجلاَّد أن يهلك في زحف الصَّباحْ
من دمي ينبثق الفتح ويعلو الانتصارْ
من دمي يخرج مليون نهارْ
فاقتلوا المرأةَ في منزلها
واخنقوا بالغاز شيخاً طاعناً بالسنِّ
يا أحفاد هولاكو التّتارْ
وأطلقوا النار على كل الصغارْ
لا غضاضَهْ .
إنّنا ميلاد شعب ردَّ للكون بياضَهْ
إنّنا ميلاد شعبً الانتفاضه .
فاحرقوا أغصاننا الخضراء إن شئتم
فللغصن اخضرارْ
والجباه السُّمر إعصار ونارْ
وَهْيَ جيلٌ حطّم الأغلال والقهر

وأهوال الحصارْ
اقتلوني ،
لستُ أرضى عن تلال اللوز
والزيتون والتين استعاضة
واسلبوا أرضي إذا شئتم
فللأرضِ نسيم الجبل الشامخِ
ماء النَّهرَ
أسراب اَلعصافير
وللنّسر إذا ما أزِفَ الصُّبح انقضاضَهْ
فاقتلوا النّسر
وعيشوا في روابينا فساداً
لن تمرّوا
جسدي العاشق للثورة جسرُ
وأنا العاصي على القتلِ
ولحمي يا عدوَّ الشّمسَ، مُرُّ
وعلى جبهتي السَّمراء يسترسل فجرُ
وعلى أرض بلادي ،
يا عدوَّ الشّمس
لن يمكث قهرُ
فاستمرّوا
أيُّها الأبطال، يا عنواننا الغالي
استمرّوا